الأسرار الإلهية في الكنيسة الأرثوذكسية

سِـرُّ الـزِيـجَـةِ
و سِـرُّ الـكَهْـنُـوتِ

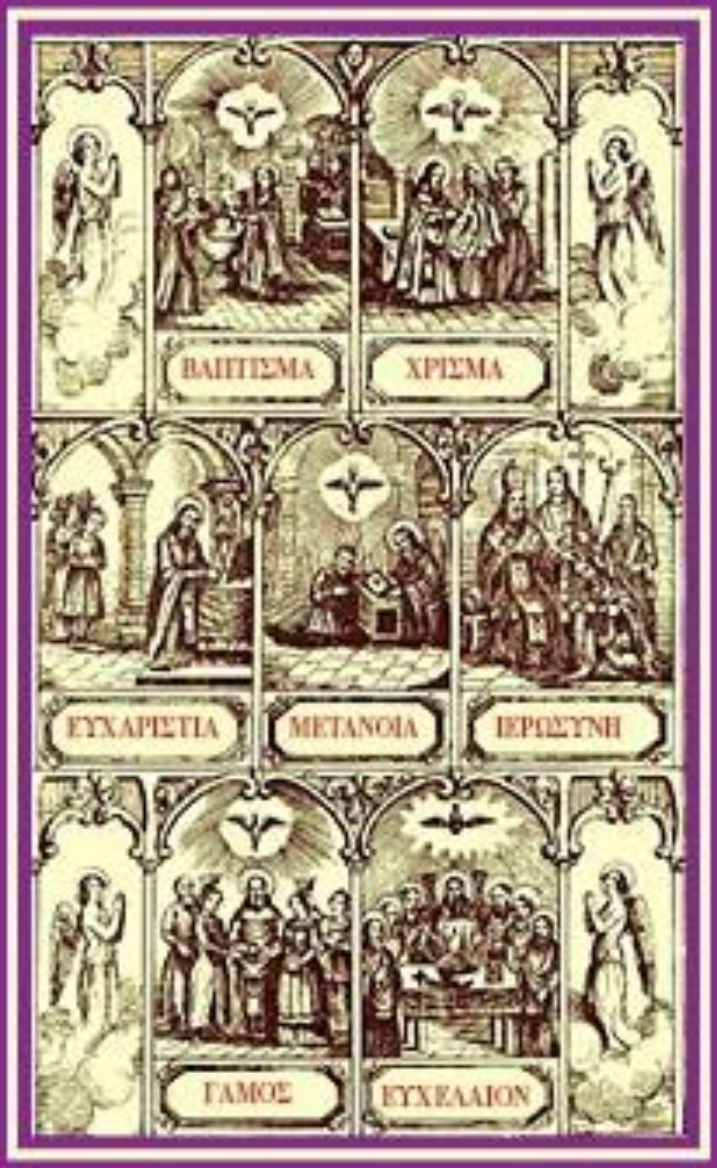

المطران/ نقولا أنطونيو

الأسرار الإلهية في الكنيسة الأرثوذكسية

سِـرُّ الـزِيـجَـةِ
و سِـرُّ الـكَهْـنُـوتِ

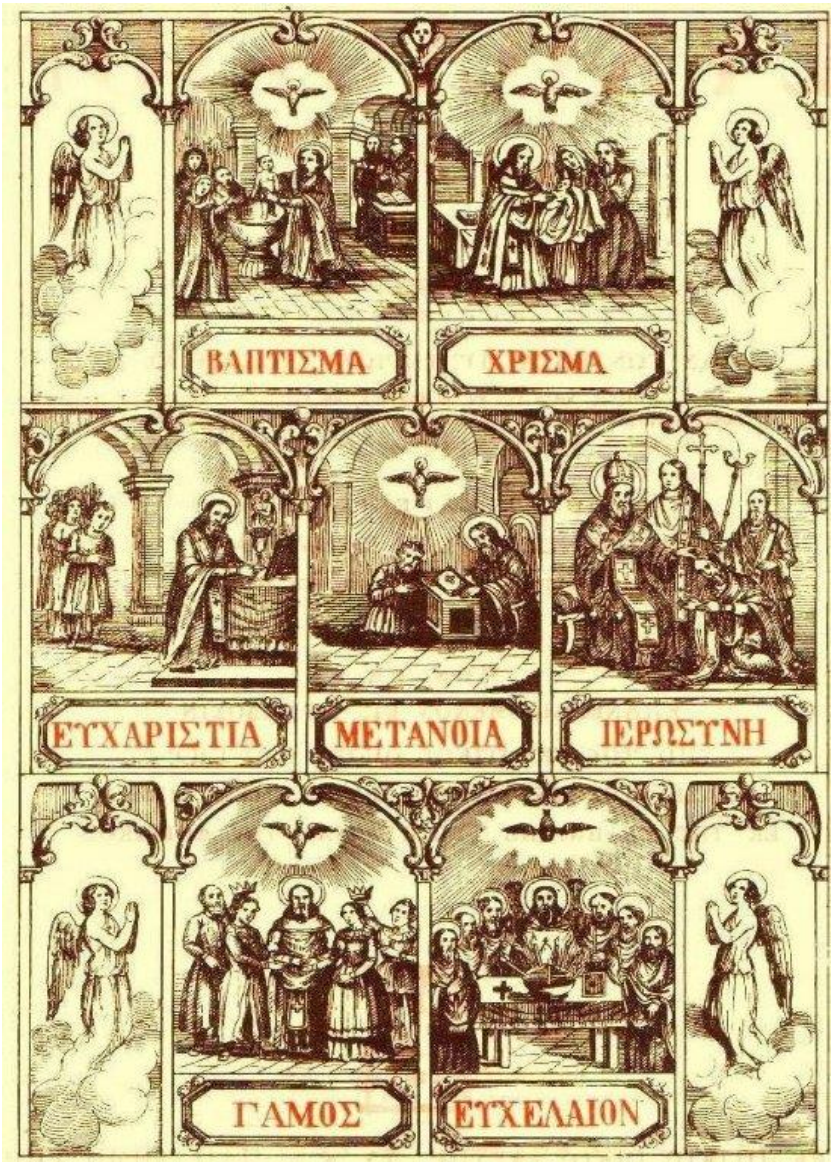

المطران/ نقولا أنطونيو

سبتمبر ٢٠١٦

المـطران/ نـقولا أنطونيو
متروبولـيت طنـطا وتوابـعها
والوكيل البطريركي لشؤون الناطقين بالعربية
في مصر

مـقدمـة

يقول نقولا كاباسيلاس في الأسرار: «هي بمثابة أبواب السماء التي بها يُدخِل المسيحُ المؤمنَ إلى ملكوته. إنها أبواب الفردوس، تلك التي أُقفِلت في وجه آدم وقد فتحها المسيحُ من جديد أمامنا لتكون لنا حياة» (شرح القداس الإلهي).

لما كانت أسرار الكنيسة السبعة الإلهية يتقبلها جميع المسيحيين بإرادتهم الشخصية، إشارةً للتعبير الحسي لكلٍّ منهم عن قبوله الإيمان بالرب يسوع المسيح وكنيسته الواحدة الجامعة الحافظة الوديعة المقدسة المُسلَّمَة إليها من الرسل القديسيين. فكلُّ سرٍّ من الأسرار الكنسية شخصيٌّ، إذ أن الحضرة الإلهية تظهر للكنيسة المجتمعة بشكلٍ حسِّي من خلال اقتبال مؤمن واحد لها. لذا فإن النصوص والطقسية التي تُستَخدَم في إتمام الأسرار دائمًا تذكر اسم المؤمن، فعند العماد يقول الكاهن: «يُعمَّد عبدُ الله (فلان)»، وعند المسح بالميرون يقول الكاهن: «يُمسَح عبدُ الله (فلان)»، وعند المناولة يقول الكاهن: «يُناوَل عبد الله (فلان)»، وهكذا في باقي الأسرار المقدسة.

ولما كان من المهم إيضاح تعليم كنيستنا الأرثوذكسية عن كل سر من هذه الأسرار السبعة، التي هي الصورة الحسية التي بها ينال المؤمنون النعمة الإلهية، ليكون للبعض قبول وممارسة أي سر منها ليس قبولًا وممارسة لطقوس وإتمام لشعائر كنسية، بدون إدراك للنتائج غير المنظورة التي ينالها كل ممارس لكل سر من هذه الأسرار من تنقية تبرير وتقديس ومغفرة للخطايا وزرع في جسد المسيح ونوال للروح القدس ومواهبه وتبني لله.

لذا بنعمة الرب يسوع المسيح، الذي أعطاني هذه الخدمة المقدسة لخدمة كنيستنا الأرثوذكسية، أضع هذه السلسلة للأسرار الإلهية السبعة بين أيدي أبنائها لبيان حقائق التعليم الأرثوذكسي لكل سرٍّ من الأسرار، التي جُمِعت من كتب أرثوذكسية مع إضافات لي توضح صحيح التعليم. ذلك أن الأسرار الكنسية السبعة كانت موضوع اختلافات متعددة بين الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة الجامعة وبين سواها من الكنائس.

أهدي هذه السلسلة لكل مَنْ عمل وعلَّم وكتب بتعبٍ واجتهادٍ لإيضاح التعليم الحق للكنيسة الأرثوذكسية إن كان أكليروسيًّا أو علمانيًّا.

المطران/ نقولا أنطونيو
سبتمبر ٢٠١٦

تمهيد

التعليم الأرثوذكسي الأولي عن الأسرار*

تعريف السر والرمز:

من المهم تعريف التعبيرين "سر" و"رمز" بحسب مفهوم كنيستنا الأرثوذكسية.

السر: في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن، هو أولاً وقبل أي أمر آخر يعتبر كشفا للطبيعة الحقيقية للخليقة، التي تبقى على سقوطها وعلى وجودها في "هذا العالم"، عالم الله المتطلع إلى الخلاص والفداء وإلى تجلي سماءً جديدة وأرضًا جديدة. وبتعبير آخر أن "السر" بحسب الخبرة الأرثوذكسية يكشف الطابع الأسراري للخليقة؛ لأن العالم إنما خُلق وأُعطي للإنسان لتتحول حياة الخليقة إلى مشاركة في الحياة الإلهية. فإذا كان يمكن أن يتحول الماء إلى غسيل للولادة الجديدة في المعمودية، وإذا كان بعض من أكلنا على الأرض كالخبز والعنب يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح ودمه، وإذا كانت مسحة الروح القدس تُمنح بالزيت. أي باختصار إذا كان بمقدورنا التعاطي وكل الأشياء التي في العالم وتقبُلها كهبة من الله وكمشاركة في الحياة الجديدة، فذلك يعود إلى أن القصد من خلق الكون إنما هو إتمام القصد الإلهي "كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ" (١كو ١٥:٢٨).

هذه المقاربة الأسرارية للعالم هي بالضبط مصدر الكونية المنيرة التي تدخل في أدق تفاصيل حياة الكنيسة والتي تطبع التقليد الليتورجي والروحاني الأرثوذكسي. من هنا نفقه الخطيئة سقوطًا للإنسان، ومن خلاله سقوطًا للخليقة من عُلى هذه الأسرارية. فما كان من المسيح إلا أن أنجز خلاص العالم بأن أعاد إلى هذا العالم تحديدًا وإلى الحياة بأكملها أسراريتها هذه. إنه سر كوني وأخروي في الوقت نفسه [كلمة "أخروية" في اليونانية "εσχατολογία" (إسخاتولوجيا)، وتعني ما هو متعلق بنهاية العالم، والمجيء الثاني للمسيح، وقيامة الأموات، والدينونة العامة، ومصير الإنسان ما بعد الموت]، إنه إعلان ظفر المسيح. وعليه فهذا يعني أن

---

* الإفخارستيا سر الملكوت، الأب الكسندر شميمن، منشورات النور.

"السر" في الخبرة والتقليد الأرثوذكسيين هو في المقام الأول الكنيسة. وبما أن الكنيسة هي "سر" فهي تُبنى وتُعلَن الشكر (الإفخارستيا) المقدس. والكنيسة ليست، إستنادًا إلى التقليد الآبائي القديم، موضوع يقبل التحديد، إنما هي خبرة حياة جديدة . إنها خبرة تكون فيها البنْيَة المؤسسية والتراتبية والحقوقية (الكنسية) والليتورجية... بنْيَة أسرارية، رمزية بجوهرها.

والرمز: في مفهوم الكنيسة الأصلي له والتقليد الأرثوذكسي، هو أن الرمز يشرح حقيقة ما يحدث، وليس إنه يرمز مجازًا إلى ما يحدث. فمعنى "الرمز" في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن لم يكن رديفًا لـ"التصوير". إذ يمكن ألا يكون هناك أي شبه، من أي نوع كان، بين الرمز وما يرمز إليه. إن وظيفة "الرمز" الأساسية لا تكمن في التصوير (ما يُفترض ضمنًا غياب ما يُصور)، بل وعلى نقيض ذلك تمامًا، في أنها ترمي أولاً وأخيرًا إلى كشف ما يُرمز إليه وإشراك المؤمنين في هذا الكشف. من هنا، يمكن البعض أن يقول إن ما بين الرمز والحقيقة التي يُرمز إليها هو تواصل أكثر منه تشابه. وهذه المقاربة للرمز تجعلنا ندرك عمق الهوة السحيق بين القديم والحديث.

إستنادًا إلى هذا الأخير (الحديث)، يمكن للرمز أن يكون صورة أو مدلولاً لشيء يختلف كليًا، لا نجده بالفعل في الرمز (كذا الحال بالنسبة للماء التي يشار إليها في الكيمياء بالرمز H^2O). في حين أن الرمز بحسب المفهوم القديم، هو إعلان بل حضور لشيء آخر، يُبرز الطبيعة الأخرى لما يُرمز إليه على أنه تحديدًا آخر، أي على أنها حقيقة لا يمكن في الظروف الراهنة أن تكشف نفسها إلا من خلال الرمز. ما يعني أن لا يمكن الفصل بين الرمز الأصيل والإيمان، فالإيمان هو بالضبط "الدليل على حقيقة وجود الأشياء غير المنظورة"، وهو سعي إلى معرفة وجود هذه الحقيقة الأخرى، وهو أبعد ما يكون عن الاختبار العلمي الذي يحتاج إلى إثبات. لكن في الإمكان ولوجه وتناوله، إنه حقيقة لا يرقى إليها الشك. فإذا كان "الرمز" يفترض وجود الإيمان، فالإيمان بدوره يتطلب رمزًا. والإيمان، خلافًا للإعتقاد البسيط أو المذهب الفلسفي، هو تحديدًا "شركة وعطش إلى الشركة، إنه تجسد وعطش إلى التجسد وإلى اعلان وحضور وإلى فعل حقيقة على أخرى". هذا هو "الرمز" بالضبط.

إن "الرمز"، على نقيض الإستعارة والعلامة. و"السر" يجمع حقيقتين، الأولى: الحقيقة التي تستند إلى إختبار، أو الحقيقة "المنظورة". والثانية: الحقيقة الروحانية، أو "غير المنظورة". وهذا الجمع لا يتم بطريقة منطقية (هذا معناه كذا)، ولا بطريقة التماثل (هذا يماثل لذلك)، ولا وفق علاقة سببية (هذا سببه كذا)، بل إستعلانيًا . كل حقيقة تكشف حقيقة أخرى لكن (وهذا هو المهم) فقط بقدر ما يكون الرمز نفسه تعبيرًا عن الحقيقة الروحانية وتجسيدًا لها. بتعبير آخر، في "الرمز" الكل يعلن الحقيقة الروحية، وكل شيء فيها ضروري لإعلانها. لكن ما يُكشف ويتجسد ليس كل الحقيقة الروحانية. فـ"الرمز" يبقى جزئيًا مبتورًا دومًا، "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ" (١كو ١٣:٩)، كما يجمع حقائق لا تقاس، إذ تبقى كل واحدة منها بالنسبة للأخرى "حقيقة أخرى كلية". مهما كان الرمز حقيقيًا، ومهما اتحد والحقيقة الروحانية، فوظيفته ليست إرواء عطشنا بل زيادته، "أعْطِنا أن نتحد بك حقيقة في اليوم الذي لا يعروه مساء... " (الأنافورا). الهدف من الرمز أن يقدم لنا رؤية ومعرفة تكونان بمثابة عطش وشوق إلى المسيرة الروحية الكاملة.

وإذا كان القداس الإلهي ذو طابع رمزي، فلأن القداس الإلهي تكوَّن وإتخذ هيكليته في بادئ الأمر بصفته رمزًا للملكوت والكنيسة في صعودها إلى السماء، مكملة نفسها في هذا الصعود كجسد للمسيح وكهيكل للروح القدس. كل جديد القداس الإلهي وطابعه الفريد يكمنان بالضبط في طبيعته الأخروية "التي تنتظر المجيء الثاني" والتي تكشف ما سيحصل، فهو إتحاد الملكوت بـ"الدهر الآتي". غير أن رمز الملكوت بامتياز؛ والرمز الذي كمّل كل الرموز، ورمز يوم الرب والفصح والمعمودية وكل الحياة المسيحية "المستمرة مع المسيح في الله" (كو ٣:٢)؛ هو سر الشكر (الإفخارستيا)، السر الذي من أجله أتي المسيح القائم من بين الأموات وسر لقائه والشركة معه "إلى مائدته وفي ملكوته"، السر الذي نتناول منه جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن.

لقد حُجِّم "الرمز" من مفهوم يشرح حقيقة ما يحدث، إلى مفهوم يرمز مجازًا إلى ما يحدث، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الانحطاط الذي نال المفهوم الأصيل للرمز في الوجدان المسيحي. منذ نشؤ الكنيسة،

والإيمان المسيحي يعترف جهارًا ويتمسك بحقيقة إستحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن. وعليه، فإن أي "خلطة" بين هذه الحقيقة وأي لون من ألوان "الطابع الرمزي" كانت تعتبر تهديدًا لـ"الحدث الحقيقي والفعلي" في سر الشكر (الإفخارستيا)، أي تهديدًا للحضرة الحقيقية للجسد والدم الإلهيَيْن على المائدة. ومن هنا أيضًا، وأخيرًا، محاولات تفسير "حقيقة هذه الإستحالة" باللجوء إلى مقولات أرسطو حول "الجوهر" و"العَرَض" وتحديدها على أنها "إستحالة في الجوهر"؛ هل أن جوهر جسد المسيح يحل محل جوهر الخبز، في حين عَرَض هذا الأخير يحل محل عَرَض جسد المسيح؟. إن هكذا شرح لا يفيد بشيء للمؤمن الذي يعترف كل قداس إلهي بأن "هذا هو جسدك نفسه... وهذا هو دمك الكريم عينه". أما بالنسبة للعقل، فهو ليس سوى محاولة تفسير غير مفهومة فُرضت على القوانين تَدَّعي (أي محاولة) أنها تستند إليها. وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى قطع كل صلة فعلية بين القداس الإلهي نفسه، سواء كان ذلك بتعدد أجزائه أم في وحدته ككل، وبين تحول مواد الخبز والخمر، وتاليًا إلى إستبعاده عمليًا من محاولات تفسير الأسرار.

مَــدخل

في الأسرار السبعة

١ـ تعريف السر

عندما نسمع كلمة "سر" غالبًا ما يراود ذهننا مفهوم الغموض الذي لا يمكن إيضاحه، أو اللغز الذي لا يمكن فهمه، أو الأحجية التي لا يمكن حلها. يبدو "السر" مرادفًا لـ"لن تفهم أبدًا، لذا لا تفكر"؛ إلا أن هذا لا يطابق مفهوم السر بحسب الإيمان المسيحي، السر المسيحي يختلف بالكلية عن اللغز.

فالقديس بولس عندما يتحدث عن الـ"سر" في رسائله يستخدم بكلمة "Μυστήριον" (Mysterion)، كما في رسالته إلى أهل كولوسي بقوله: "السِّرِّ (τὸ μυστή ριον) الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ" (كو ١:٢٦). وإذا ما نُظر مليًا إلى المعنى الذي يستعمل فيه هذه الكلمة لَوُجد أنه لا يشير إلى واقع غامض، بل إلى المشروع الخلاصي الذي كان مستترًا في الله منذ خلق العالم، وقد ظهر في الأزمنة الأخيرة في يسوع المسيح. لذا فإن "السر"، في وجهة النظر المسيحية، هو رفيق الحقيقة. فحقيقة المسيحية هي أن "هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣:١٦)، وهذا بالضبط هو السر.

وقد ترجمت الكلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) الموجودة في كتب العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية بكلمة "Sacrament". وهذه الكلمة اللاتينية هي كلمة قانونية تعني القَسَم المقدس (قَسَم اليمين في المحاكم اليوم). وطوال ما يزيد على الألف سنة استعملت الكنيسة كلمة "Sacrament" بمعانٍ عديدة، فهي تعني حقائق الإيمان المسيحي التي هي: سر الثالوث الأقدس، وسر التجسد، وسرالفداء. ومن القرن السابع عشر أخذت هذه الكلمة معناها الواضح للدلالة على "السبع علامات المقدسة الكبرى"، أي "الأسرار السبعة". وترجمت كلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) إلى اللغة الإنجليزية بكلمة "Mystery" وليس "Secret".

السر حسب تعريف الاعتراف المستقيم الرأي هو عمل مقدس به تنال نفس المؤمن نعمة الله غير المنظورة تحت علامات منظورة، وهو مرتب من ربنا يسوع المسيح الذي بواسطته ينال النعمة الإلهية كل واحد من المؤمنين، كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «لأن المسيح لم يسلمنا شيئًا حِسيًّا، بل سلمنا بالأشياء الحِسيَّة كل ما أعطانا روحيًّا. هكذا في المعمودية أيضًا؛ أما بالشيء الحِسيّ فتصير منحة الماء، ولكن المُكمل روحيٌّ وهو الولادة والتجديد. لأنك لو كنت بلا جسم لكان سلمك المواهب العديمة الجسم مجردة، ولكن بما أن النفس متحدة بالجسم فقد سلمك العقليات (غير الحسيات) بالحسيات».

وعلى ذلك تكون الأسرار في جوهرها أعمالاً مقدسة مانحة فعلاً النعمة الإلهية للمؤمنين ومن ثمَّ ليست رسومًا للمواعيد الإلهية فقط، بل هي أيضًا أدوات تفعل ضرورة في المتقدمين إليها بواسطة النعمة الإلهية. أما أوصافها الجوهرية حسب تعليم الكنيسة فهي، أولاً: أنها مؤسَّسة من الله. ثانيًا: أنها ذات هيئةٍ أو صورةٍ منظورة أو حسية. ثالثًا: أنها تُناول النعمة الإلهية غير المنظورة لنفوس المؤمنين.

وعليه يُخلص إلى القول: إن "السر" في الحديث عن الأسرار الكنائسية يعني السبيل إلى الولوج إلى عمق حياة الله. الأسرار هي النعمة وقد شاءت أن تضحى ملموسة، يُمكن اختبارها جسديًا، ماديًا وفي التاريخ. الأسرار الكنائسية ليست فوازير وأحاجي، بل هي فيض النعمة والمحبة الإلهية التي لا يمكن سبر عمقها وإدراك جوهرها، ولهذا هي "سر إلهي".

٢- الأسرار وعددها

إن يكن الآباء القديسون ومعلموا الكنيسة لم يذكروا ذكرًا صريحًا عددًا للأسرار محددًا، وإن ولم تصل إلى أيدينا مؤلفات منهم تبحث في الأسرار كلها معًا، لكنهم قد بحثوا وذكروا كثيرًا في مؤلفاتهم تارةً سرًّا واحدًا فقط وتارةً إثنين وتارةً ثلاثة كما كانت تقتضي الظروف والغاية من مقالاتهم. لكن ينبغي أن نتذكر العادة التي كانت سائدة في الكنيسة بحفظ التعليم السري مكتومًا وتسليمه إلى أهله فقط، كما يؤكد القديس باسيليوس الكبير في رسالته القانونية إلى أمفيلوشيوس حيث يقول: «إن الكنيسة فضلاً عن

عقائدها وتعليمها المكتوب تحتفظ ما تسلمته من تقليد الرسل سرًّا». وبعد أن ذكر صريحًا في هذه الرسالة بعض الترتيب مما يتعلق بسر المعمودية والمسحة والشكر، أبدى هذا السؤال: «من أية كتابة أخذنا هذه كلها؟ أليس من هذا التعليم السري غير المشاع الذي حفظه آباؤنا بصمت خالٍ من البحث والاستقصاء، إذ تعلموا حسنًا أن يحفظوا الأسرار الموقرة بصمت؟ لأنه كيف يليق أن يباح بالكتابة تعليم الأشياء التي لا يُسمح لغير كاتميها أن ينظروا إليها؟». ويوحنا الدمشقي يتكلم عن سرين فقط، وديونيسيوس الأريوباغي يتحدث عن ستة، أما يوشافاط متروبوليت أفسس (في القرن الخامس عشر) فيذكر عشرة، وهنالك عدد من اللاهوتيين البيزنطيين يتفقون على سبعة أسرار.

عادة تتكلم الكنيسة الأرثوذكسية عن سبعة أسرار، لأنه كما قال اللاهوتيون إن الأسرار السبعة في الكنيسة مقابِلةٌ ومساويةٌ في العدد لسبعة مواهب الروح القدس في ملئها، والتي ذكرت في سفر إشعياء النبي (الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم): "وَيَحُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ، رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ، رُوحُ الْمَعْرِفَةِ والْتَقْدِيرِ. رُوحُ مَخَافَةِ الرَّبِّ" (إش ١١:٢)، التي تُمنح للمؤمنين بأسرار الكنيسة السبعة. ومقابِلةً أيضًا للخبزات السبع التي أشبع الرب بها إلوفًا من البشر (مت ١٥:٣٦-٣٨)، وللمنارات الذهبية السبع التي رأى يوحنا مُشاهد الأسرار ابن الإنسان في وسطها (رؤ ١:١٢ و١٣)، وللكواكب السبعة التي كان مخلصنا وقتئذٍ ضابطًا إياها في يده (رؤ ١٦)، وللأختام السبعة التي كان مختومًا بها الكتاب الذي رآه في يمين الله (رؤ ٥:١)، وللأبواق السبعة التي أُعطيت للملائكة السبعة الواقفين قدام الله بعد فتح ذلك الكتاب السري (رؤ ٨:١ و٢). كذلك لأن "الرقم سبعة" يرمز إلى الكمال والملء ويُعتبر ذا كرامة، ذلك أنه عند اليهود آخر أيام الأسبوع هو يوم السبت، وهو اليوم السابع الذي باركه الله وقدسه وفيه استراح بعد أن أُكملت السماوات والأرض.

والأسرار المُقَدَّسة السبعة هي: المعمودية، المسحة (الميرون)، الشركة (التناول)، التوبة، صلاة الزيت، الزيجة، والكهنوت. فبالمعمودية، يُولَد الإنسان ولادة ثانية سرية للحياة الروحية. وبالمسحة، يَنال النعمة التي تُنميه

وتُثبته في الحياة الروحية. وبالشركة، يُتحَد روحيًّا مع يسوع المسيح نفسه. وبالتوبة، يُشْفَى من أمراضه النفسانية وهي الخطايا. وبصلاة الزيت، ينال شفاء الأمراض النفسانية والجسدانية أيضًا. وبالزيجة، يَنال النعمة المقدِّسة السيرة الاقترانية للولادة الجسدية ولتربية الأولاد مسيحيًا. وبالكهنوت، يَنال نعمة بها يُجَدِّد ولادة الآخرين الروحية بواسطة تكميل وتعليم كلام الله.

غير أنه حين التحدث عن الأسرار السبعة، فلا ينبغي أن تُفصل عن أعمال أخرى تتخذ هي بدورها طابع الأسرار، أي كل الخدم التقديسية، مثل: تبريك المياه في عيد الظهور الإلهي، صلاة تقديس المياه الصُغرى لتبريك المنازل، مسح الكنائس بالزيت وقت تدشينها، ارتداء الإسكيم الرهباني، وخدمة الجناز... الخ؛ ففي جميع الخدم هذه هنالك إشارة منظورة ونعمة روحية غير منظورة. والكنيسة الأرثوذكسية تستخدم أيضًا عددًا كبيرًا آخر من الخدم التبريكية الصغيرة التي هي من طبيعة الأسرار المقدسة مثل: الصلاة على القمح والخمر والزيت والفاكهة، ومباركة الحقول والمساكن والأشياء المختلفة. لهذه الخدم الصغيرة ومعظم الأحيان هدف عملي واقعي، إذ توجد صلوات لتكريس السيارات والقاطرات وحتى من أجل القضاء على الديدان المؤذية. وليس ثمة فرق جذري بين الأسرار الأساسية وأفعال التكريس هذه، إذ يجب أن يُنظر للحياة المسيحية كوحدة، وكسر واحد كبير يجري التعبير عن مختلف جوانبه من خلال مجموعة من الصيغ والأساليب، بعضها يمارس مرة واحدة فقط في حياة الإنسان، والبعض الآخر قد يمارس كل يوم تقريبًا.

٣- الشروط المطلوبة لتتميم الأسرار:

يُطلب لتتميم كل سر من الأسرار ثلاثة شروط. أولاً: المادة الملائمة لتتميم السر، مثل الماء للمعمودية والخبز والنبيذ للشركة والزيت للمسحة وغير ذلك من سائر الأسرار. ثانيًا: أسقف، أو كاهن، مُشرطن قانونيًا. ثالثًا: استدعاء الروح القدس بالعبارات المعينة لتقديس السر من الأسقف، أو الكاهن، بقوة وحلول الروح القدس.

سِـرُّ الـزيجَـةِ

الباب الأول

تأسيسه الإلهي من البداية،
غايتة، تعريفه، وأسمائه

١- تأسيس الزيجة من حيث أنها سر الإلهي

حيث أن الزيجة من جهة هي تمنح المؤمن نعمة ولادة الأولاد بحسب الناموس الطبيعي المرتب من الله، ومن جهة أخرى هي سر من أسرار كنيسة العهد الجديد التي تُقدس هذا الناموس الطبيعي بعد سقوط الإنسان. لهذا فإن الزيجة هي مؤسسة من الله، لأنها ناموس موضوع من الخالق في جهاز الإنسان ومصدَّق عيه ومشروح عنه في الإعلان الإلهي الفائق الطبيعة. فإن موسى النبي كاتب سفر التكوين في كلامه عن خِلْقَة الأجداد أول الجبلة يقول: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ" (تك ١:٢٧و٢٨). وبعد ذلك في كلامه عن خِلْقَة الرجل الأول آدم يقول: "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً" (تك ٢:٧). ثم في كلامه عن خِلْقَة المرأة الأولى وظهورها إلى آدم يقول: "وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ... وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ" (٢:١٨-٢٢). وقد استنار آدم من روح الله فقال: "هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ. لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا" (تك ٢:٢٣و٢٤).

هذا كله كان في بدء الكون إذ كان الإنسان في براءة قبل أن يفسد. وعندما فسد الجنس البشري أيضًا حين الطوفان لم يُبطل الله هذا الناموس بل أكده وثبته بعد الطوفان وجدده بالبركة عينها التي بارك بها أول الجبلة،

فقال الكتاب المقدس: "وَبَارَكَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ. وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ، مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ. قَدْ دُفِعَتْ إِلَى أَيْدِيكُمْ" (تك ٩:١و٢). وفي شريعة موسى أوامر صارمة في حفظ رباط الزوجية بلا تعدٍ لأنها مؤسسة ومباركة من الله، إذ تقول: "إِذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَحِينَ دَخَلَ عَلَيْهَا أَبْغَضَهَا... فَيَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الرَّجُلَ وَيُؤَدِّبُونَهُ" (تث ٢٢:١٣-١٨).

وفي العهد الجديد ثبَّت مخلصنا هذه الحقيقة عندما أجاب على سؤال الفرسيين "هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُسَرِّحَ ["ἀπολῦσαι" (apostasai)] امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟" (مت ١٩:٤)، فأجابهم قائلاً: "أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ" (مت ١٩:٤-٦).

وكان ربنا قد ثبت قبلاً رباط الزيجة بحضوره العرس في قانا الجليل حيث صنع أول عجيبة من عجائبه بتحويله الماء إلى خمر (يو ٢:١-١١). وهذه الحقيقة نفسها أكدها الرسل القديسون أيضًا، فإن بولس الرسول يقول: "لأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ... غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنْ دُونِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ مِنْ دُونِ الرَّجُلِ فِي الرَّبِّ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ مِنَ الرَّجُلِ، هكَذَا الرَّجُلُ أَيْضًا هُوَ بِالْمَرْأَةِ. وَلكِنَّ الْجَمِيعَ مِنَ اللهِ" (١كو ١١:٩-١٢)، وفي محل آخر يقول: "مَنْ زَوَّجَ فَحَسَنًا يَفْعَلُ" (١كو ٧:٣٨)، وفي محل آخر يشجب بعض الشاردين عن الإيمان لاحتقارهم الزواج ومنع الناس عن هذا الرباط المقدس، بقوله: "وَلكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا: "إِنَّهُ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الإِيمَانِ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينَ، فِي رِيَاءِ أَقْوَالٍ كَاذِبَةٍ، مَوْسُومَةً ضَمَائِرُهُمْ، مَانِعِينَ عَنِ الزِّوَاجِ" (١تي ٤:١-٣).

كما أن الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة أعلنوا بعد الرسل بأن الزيجة مؤسسة من الله ومقدسة ومنهم إيريناوس (ضد الهراطقة ١:٢٤)، ومثوديوس (في البتولية ٢)، وترتليانوس (ضد ماركيون ١)، ويوحنا الذهبي الفم (مقالة ٢١ على التكوين). وحاربوا أصحاب البدع: فأبيفانيوس

كتب ضد تلاميذ ميناندروس (في هرطقة ٢٣)، وإريناوس كتب ضد سارطورنينوس وكاربوكراتيس وباساليدس (ضد الهرطقات ١:٢٤) وضد ماركيون (ضد الهرطقات ١:٢٨). كما كتب ضد المدعوين الإمساكيين كل مِن: إريناوس (ضد الهرطقات ١:٢٣) وأوسابيوس في تاريخه (٤:٢٩) وأبيفانيوس (هرطقة ٤٦). وكتب ضد المانوية، أغسطينوس (ضد المانوية ٢:١٠). كما كتب هؤلاء الآباء وغيرهم ضد آخرين غير أصحاب هذه الهرطقات ممن كانوا يمنعون الزيجة ويُسموها "إختراعًا شيطانيًا" ويعتبرونها غير لائقة للمسيحي بالكلية.

٢- غاية السر

إن تأسيس سر الزيجة من الله له غايتان،

الأولى: هي نمو الجنس البشري وحفظه كما يستنتج من أقوال الله التي بارك بها الزوج الأول بقول الكتاب المقدس: "ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ" (تك ١:٢٧و٢٨). وترتبط بهذه الغاية غلية أخرى وهي نمو وتكثير أعضاء كنيسة الله المقامة لأن تؤَلَّف من الجنس البشري عمومًا وبلا استثناء.

والكنيسة الأرثوذكسية لا تشجع على العموم تحديد النسل بالوسائل الاصطناعية. ويحظر بعض الأساقفة واللاهوتيين كليًا استعمال مثل هذه الوسائل، بينما يتخذ البعض الآخر موقفًا أكثر مرونة ويدعون إلى ترك حل هذه المشكلة لحرية الزوجين بالتشاور مع أبيهم الروحي.

الثانية: هي تعاضد الزوجين ومساعدة كل منهما الآخر مساعدة متبادَلة في هذه الحياة، فقد خلق الله الإمرأة الأولى حواء من ضلع آدم كي تكون معينة ومكافئة له، وفقًا لكلام الله حيث قول: "لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ" تك ٢:١٨). كما أن الله خلق حواء من ضلع آدم، "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً" (تك ٢:٢١و٢٢)، كي يربط الاتحاد الطبيعي رباطًا قويًا بين الزوجين حتى يعيشا كل حياتهما غير منفصلين.

وقد أضيفت غاية ثالثة، بعد سقوط الإنسان وتشوه صورة الله فيه التي خلق عليها وبسبب تسلط الخطيئة علية وميله إلى الأرضيات، وهي أن تكبح الزيجة الناموسية جموح الإنسان إلى الشهوات المُحرمة والاقتران المخالف للناموس الذي تميل إليه أحيانًا طبيعته البشرية فتُخمد الزيجة ثورة الأفكار اللحمية الثائرة عليه، وقد أوضح القديس بولس الرسول هذا بقوله: "فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً. وَلكِنْ لِسَبَبِ الزِّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْتَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا" (١كو ٧:١و٢). وبعد ذلك يقول: "أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ، إِنَّهُ حَسَنٌ لَهُمْ إِذَا لَبِثُوا كَمَا أَنَا. وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلْيَتَزَوَّجُوا. لأَنَّ التَّزَوُّجَ أَصْلَحُ مِنَ التَّحَرُّقِ" (١كو ٢:٧و٨).

وهذه الغاية نفسها أوضحها معلمو الكنيسة الأقدمين أمثال إكليموندس الاسكندري ويوحنا الذهبي الفم وأوغسطينوس. كما أوضحها القديس يوحنا الذهبي الفم بأكثر تفصيل في مقالات متعددة له ويُخلص منها إلى أن: «الزواج والشهوة أُدخلا بعد السقوط حصرًا لأسباب روحيّة ونسكيّة، أي للحياة بالمسيح وللكمال الروحي للبشر». إيمانه هذا يبرهنه ليس فقط من الحياة الإنسانيّة الأولى الفردوسيّة وإنما من قيامة المسيح، التي هي وحي للحالة الإسختولوجيا (الأخروية) المرجوّة. ذلك لأنه قبل قيامة المسيح ساد الخوف من الموت وتسلط هذا الأخير على حياة البشر، عندها كان الإنجاب أشهى ما لدى البشر لأنه كان استمرار حياتهم "وعزاءهم ضد الموت" والجميع بنو رجاءهم على ذلك، بأن يتركوا "ورثة" و"ذكرى" و"باقي" لهم، وبالإنجاب تستمر حياتهم. انطلاقًا من هذا الاعتقاد توصلوا في العهد القديم إلى السماح بتعدد الزوجات، "وَكَانَ لِجِدْعُونَ سَبْعُونَ وَلَدًا خَارِجُونَ مِنْ صُلْبِهِ، لأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ نِسَاءٌ كَثِيرَاتٌ" (قض ٨:٣٠)، غير أنه كان هنا دائمًا تعلّق بامرأة واحدة (اسحق، يوسف...)؛ لأن الناس لم يكونوا قد آمنوا فعلاً بحياة القيامة ولم تكن لديهم بعد فكرة أكيدة وواضحة عنها، وهذا ما تؤكده حوادث جرت مع أناس لمعوا بالفضائل، كأيوب مثلاً. أما الآن فبعد أن لمعت شمس القيامة صار هذا الرّجاء "غير ضروري".

ويضيف القديس يوحنا الذهبي الفم أيضًا إنه بعد أن امتلأت الأرض اليوم بالبشر، أصبحت الحاجة الآن أن نشتهي "الولادة الروحية" أكثر من "الإنجاب الطبيعي". وبالنهاية يقول أن: «علة الزواج واحدة وهي أن

نتجنب الزنى»، أي أن الزواج هو دواء بالأساس لشهوة الجسد. في نصوص أخرى يقول أنَ الزواج أُدخل لكي "نتعقل ونتعفف"، ولكي نصير آباء. يُخلص من أقواله إلى أن: الاستنتاج الأول أمّا العلة الأولى والسبب الأساسي بين السابقين هو التعقل والتعفف. فهو يعالج الزواج كموضوع روحي كتداوي وواسطة للكمال الروحي، إن كان من الحياة البشرية الأولى أو من قيامة المسيح. بالطبع هذا الموقف لا يشكل إنقاصًا من أهمية العائلة والأولاد، فإذا كان فكر القديس يوحنا الذهبي الفم بحسب العهد الجديد لا يشدد على الإنجاب كغاية في الزواج وإنما كثمرة، ذلك لا يعني أن الإنجاب غير مطلوب؛ لأن الكمال الروحي سيتم عبر البيت الذي هو الكنيسة الصغيرة. لكن من الواضح عنده أنه عندما لا يساهم إنجاب الأولاد في تشديد أواصر المحبة والوحدة ولا تكون خَلقًا روحيًا، ليس فقط إنجابًا طبيعيًا، عندها تستحق الرثاء لا المدح. ومن جهة أخرى، عندما شدّد القديس على أن الإنجاب ليس هدفًا أولاً للزواج أراد بذلك أن يُخلّص البتولية من عيب العقر.

فالزواج هو "سر المحبة" كما يسميه الذهبي الفم، والمحبة في العائلة تكتمل أكثر عند محبة الزوجين. إذًا أول ما يُستخلص من تعاليم القديس الذهبي الفم أن الزواج هو علاج للشفاء الروحي وواسطة للكمال والقداسة وهدفه المحبة أولاً والتعقل والتعفف. فيوحنا وإن كان يتكلم بالأكثر عن فائدة الزواج كواسطة للتعقل وتجنب للزنى فهذا لا يعود إلى أن ذلك هو الهدف الأول والغاية الأساسية، الذي هو نمو الجنس البشري وحفظه، وإنما زيادة لفائدة حاجات سامعيه. القديس فم الذهب يبقى أبدًا أمينًا على وصية بولس الرسول: "لاَ يَسْلُبْ أَحَدُكُمُ الآخَرَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُوافَقَةٍ، إِلَى حِينٍ، لِكَيْ تَتَفَرَّغُوا لِلصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُوا أَيْضًا مَعًا لِكَيْ لاَ يُجَرِّبَكُمُ الشَّيْطَانُ لِسَبَبِ عَدَمِ نَزَاهَتِكُمْ" (١كور ٧: ٥)، حيث يتضح أن هدف العفة هو المحبة.

الاستنتاج الثاني هو أن الإنجاب ليس الهدف الأساسي في الزواج وإنما هو واسطة للكمال الروحي، فذهبي الفم يطلب الإنجاب لكن دون أن يحتل المكانة الأولى في أهداف الزواج. هذه النظرة العميقة تعود إلى حجر الأساس في تعليم القديس يوحنا الذهبي الفم، وهو لا ينطلق في نظرته

للإنسان من فلسفة فيسيولوجية وإنما من الإيمان بأن الإنسان هو كائن سيسكن السماء، وعندها يغدو الزواج "سرًا".

هذه النظرة السامية للزواج هي ردّ مباشر على الغنوسية من جهة، وعلى المفكرين واللاهوتيين الغربيين من جهة أخرى. فالزواج هو عناية إلهية من ضمن التدبير الإلهي المحب للبشر.

٣- تعريف سر الزيجة

إن سر الثالوث المعبِّر عن الوحدة في التعدد لا ينطبق على عقيدة الكنيسة فقط، بل على الزواج أيضًا. فالإنسان مخلوق على صورة الثالوث، والله لم يخلقه لكي يعيش وحده بل ليعيش ضمن عائلة، إلا في بعض الحالات الاستثنائية. وكما بارك الله العائلة الأولى، وأوصى آدم وحواء بأن يكونا خَصِبَيْن ويتكاثرا، كذلك فإن الكنيسة تبارك اتحاد الرجل والمرأة. والزواج ليس وضعًا تفرضه الطبيعة فقط، بل هو حالة من النعمة. والحياة الزوجية، كما الحياة الرهبانية، رسالة خاصة تتطلب نعمة خاصة من الروح القدس، وهذه النعمة تُعطى من طريق سر الزواج. ولما كان ناموس الزيجة الذي وضع منذ البدء مقدسًا ونقيًا لأنه مؤسس من الله لمقاصد مقدسة قد خضع لسلطان الخطيئة، بسبب فساد الطبيعة البشرية وتنوعت أشكاله على أنواع عديدة من بشر لحميين، فقد سُرَّ ربنا يسوع المسيح أن يجعله في كنيسته سرًا جديدًا لكي يُقدسه ويثبته ويرفع شأنه. من هنا يفهم تعريف السر وهو: «أن سر الزيجة هو خدمة شريفة بها يرتبط الشخصان القادمان إلى الاشتراك بالزواج إرتباطًا علنيًا أمام الكنيسة بوعد كل منهما للآخر أن يحفظا أمانة زوجية متبادلة، فيأخذان ببركة الراعي النعمة الإلهية من فوق التي تقدس اتحادهما الزيجي وترفعه بهما إلى سمو صورة الاتحاد الروحي بين المسيح وكنيسته وتساعدهما أن يتمما مقاصد الزيجة المتنوعة».

٤- أسماؤه

هذا السر يُسمى "إكليلاً"، بسبب الأكاليل التي توضع عادة على رؤوس العروسين في خدمة الزيجة. كلمة "إكليل" باليونانية "στέφανος" (stefanos)، وهذا الإكليل هو "إكليل الفوز" أو "إكليل النصر" الذي يناله

الشهداء القديسون الذين ظلوا على أمانتهم لمخلصهم وربهم يسوع المسيح حتى المنتهى، أي حتى نهاية حياتهم. وهذه الأمانة نفسها تُطلب من الزوجين ليتمما مقاصد الزيجة المتنوعة بالنعمة الإلهية المعطاة لهما بسر الزيجة، كما ذُكر أعلاه في تعريف السر. فالإكليلان هما إكليلا فرح ولكنهما أيضًا إكليلا استشهاد؛ لأن كل زواج حقيقي يتطلب من كلا الطرفين نكرانًا خاصًا للذات. لهذا تُرتل في خدمة الزيجة طروبارية الشهداء: «أيها الشهداء القديسون الذين جاهدتم حسنًا فتكللتم، تشفعوا إلى الرب أن يرحم نفوسنا».

الباب الثاني

تأسيس الرب لسر الزيجة،
البراهين من الكتاب المقدس
التقليد الشريف، فاعلته،
وممارسة السر في الكنيسة

١- تأسيس يسوع المسيح لسر الزيجة

إن الإنجيليين لم يذكروا في الإنجيل المقدس متى وكيف أسس ربنا يسوع المسيح سر الزيجة، كما لم يذكروا "آيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هذَا الْكِتَابِ" (يو ٢٠:٣٠). على أن بعض الآباء والمعلمين قالوا أن ربنا يسوع المسيح قد أسس سر الزيجة عندما حضر العرس في قانا الجليل وباركه بحضوره الشخصي وملأه نعمة (يو ٢:١-١١). وبعضهم قال أنه أسسه بتكلمه مع الفريسيين في الزواج الحقيقي (مت ١٩:١-١٢)، بقوله: "فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ" (مت ١٩:٦). وآخرون قالوا أن الرب أسس هذا السر بعد قيامته من الأموات مدة ظهوره أربعين يومًا لتلاميذه وكلامه لهم عن ملك الله يعني عن أمور تتعلق بتأسيس الكنيسة، "أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينَ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ" (أع ١:٣). على جميع الأحوال يُعرف جيدًا من كتابات الرسل القديسين ومن التقليد الكنسي أن سر الزيجة قائم في الكنيسة منذ البدء وأنه متسلسل من يسوع المسيح نفسه.

٢- البراهين من الإنجيل المقدس أن الزيجة سر

من البراهين الواضحة التي تشهد بوجود هذا السر في كتابات الرسل شرح بولس الرسول لواجبات المرأة المسيحية، بقوله: "أَيَّتُهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ. فَكَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (أف ٥:٢٢-٢٤). ثم أنه يعدد واجبات

الرجل المسيحي، بقوله: "أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا" (أف ٥:٢٥). وأخيرً في تفسيره أساس هذه الواجبات الزوجية يبيَّن طبيعة الرباط الزوجي والأهمية التي للزيجة في المسيحية، فيقول: "مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ" (أف ٥:٣١و٣٢). وما دام رباط الزوجية في المسيحية هو صورة حقيقية في جوهره تُصوِّر سريًا اتحاد المسيح بالكنيسة، وهذا الاتحاد هو بلا ريب مقدس وبريء من الدنس، "أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ، لِكَيْ يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً، لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذلِكَ، بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ" (أف ٥:٢٥-٢٧). من هنا يظهر أن رباط الزيجة يُصوِّر اتحاد المسيح بالكنيسة ومن ثمَّ على هذا المعنى يكون الزواج سرًا عظيمًا؛ لأنه لو لم يكن المشتركان في الزواج ينالان من العلاء نعمة خصوصية بسر الزواج المسيحي لما أوصى بولس الرسول بتلك الواجبات المتبادلة للزوج المسيحي، كما أن هذه المقابلة من جهة بين الزواج ومن جهة أخرى المسيح والكنيسة لم يكن لها محل على الإطلاق لو لم يكن المشتركان في الزواج ينالان من العلاء نعمة خصوصية بسر الزواج. فمن الضروري أن يُسلَّم أن الزيجة أيضًا قد تقدست في المسيحية وامتلأت نعمة بطريقة سرية من لدن يسوع المسيح واستوفت شروط السر وأنها سر.

ثم أن هذا الرسول ذاته في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يتكلم في البتولية والعيشة الزوجية، فيقول: "أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ، إِنَّهُ حَسَنٌ لَهُمْ إِذَا لَبِثُوا كَمَا أَنَا. وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلْيَتَزَوَّجُوا. لأَنَّ التَّزَوُّجَ أَصْلَحُ مِنَ التَّحَرُّقِ" (١كو ٧:٢و٨)، "فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً. وَلكِنْ لِسَبَبِ الزِّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا" (١كو ٧:١و٢). وبعد ذلك يقول: "الْمَرْأَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ مَا دَامَ رَجُلُهَا حَيًّا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ رَجُلُهَا، فَهِيَ حُرَّةٌ لِكَيْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تُرِيدُ، فِي الرَّبِّ فَقَطْ" (١كو ٧:٣٩)، موضحًا أنه من أزمنة الرسل كانت الزيجة المسيحية تُعقد

باسم الرب، بمعنى أنها عملاً دينيًا وكنائسيًا مقدسًا ومختومًا بخدمة منظورة، ومن ثم سرًا مستوفيًا شروطه.

أما الذين لا يرفعون رباط الزيجة في المسيحية إلى درجة السر، أمثال البروتستانت، ولا يمنحوا هذا الرباط هذه الأهمية العظيمة ويرفعه إلى تمثيل اتحاد المسيح بالكنيسة، ولا يؤمنون أن في كنيسة العهد الجديد سرًا خصوصيًا أو خدمة كنائسية يتقدس بها رباط الزيجة ويُختم بنعمة يسوع المسيح. فذلك لأنهم لا يرون أن رباط الزيجة في المسيحية يرتفع إلى درجة السر حتى يكون سرًا عظيمًا لا بسيطًا، بمعنى أن سر الزيجة عندهم هو عقد بين رجل وامرأة والحضور شهود على هذا العقد.

٣- البراهين من كتابات آباء الكنيسة أن الزيجة سر

إن آباء الكنيسة ومعلميها الذين هم حراس التقليد الرسولي لا يتركون أقل شك في صحة هذا التعليم. وتُقسَّم شهاداتهم إلى نوعين:

النوع الأول منها هي التي تصف الزيجة المسيحية بأنها عمل ديني مُكمَّل ببركة الأساقفة أو الكهنة، ومنها:

شهادة القديس أغناطيوس المتشح بالله الذي يقول: «يجب على المتزوجين والمتزوجات أن يُجروا اتحادهم برأي الأسقف، لكي يكون الزواج مطابقًا لإرادة الله لا بحسب الشهوة» (رسالته إلى بوليكاربوس فصل ٥:١).

وشهادة القديس باسيليوس الكبير الذي يقول: «أيها الرجال أحبوا نساءكم وإن كنتم غرباء بعضكم عن بعض فتشتركون بالزيجة، أن الرباط الطبيعي والزواج المقرون بالبركة يجمع المتباعدين» (في شرح ستة أيام الخلق مقالة ٧).

وشهادة القديس غريغوريوس الكبير الذي يقول: «ألم تقترن بالجسد بعد؟ فلا تخف من تتميم ذلك، فأنت طاهر والمسئولية عليَّ لأني أنا عقدته وأنا اعطيتك العروس» (خطاب في المعمودية فصل ١٨).

وشهادة القديس أمبروسيوس الذي يقول: «إذا كان من الواجب أن يُعقد الزواج بحلة كهنوتية وبركة، فكيف لا يمكن أن تكون زيجة حيث الإيمان متنوع؟» (رسالة إلى وجيليوس فصل ١٩).

وشهادة القديس ترتليانوس الذي يقول: «كيف يمكنا أن نعبر عن سعادة الزيجة التي تقصدها الكنيسة ويثبتها القربان وتختمها بالبركة؟» (لإمرأته ٢).

وآباء المجمع الثاني المسكوني (في القانون ١٣) وآباء مجمع قرطاجنة (في القانون ٤) يقولون: «يجب على العروسين أن يشتركا حالاً بعد الإكليل بالأسرار المقدسة وأن يحافظا على البتولية إلى الغد لأجل بركة الزيجة والأسرار الإلهية».

والقديس إكليمندس الاسكندري (المربي ٣) والبابا سيركيوس (رسالة إلى هيماريوس ٤) والبابا إينوشنسيوس الأول (رسالة إلى هيماريوس ٤) يشهدون مثلهم.

والنوع الثاني منها هي التي تُسميها سرًا مانحًا النعمة الإلهية، ومنها:

شهادة القديس ترتليانوس الذي يعترف بأن الزواج سر مثل سائر الأسرار كالمعمودية والميرون والشركة، بقوله: «إن الشيطان بما أنه يطلب أن يهدم الحقيقة فيقلد الأسرار الإلهية نفسها عند الأمم الوثنيين فيُعمِّد بعضًا من أتباعه ويعدهم بأن تُغفر خطاياهم بالمعمودية ويختم جبهة أضداد ويقيم احتفاليًا تقديم خبز... ويدعو الكاهن ليبارك الزيجة» (في الهرطقات فصل ٤٠).

والقديس يوحنا الذهبي الفم يحارب الأغاني والاحتفالات غير اللائقة في الأعراس، بقوله: «قُل لي لماذا تسمح في بادىء الأمر بأن تمتلىء أذان ابنتك من الشوائب بالنشائد القبيحة، وبذاك الاحتفال الذي لا محل له؟ أو لست تعلم أن الصبوة سهلة الزلق؟ لماذا تهتك أسرار الزيجة الموقرة؟ فإنه ينبغي أن ترفض كل هذه وتُعلِّم ابنتك الحياء من البدء وتدعو الكهنة وتعقد اتحاد الأزواج بالصلوات والبركات لكي ينمو شوق العريس وتزداد عفة العروس ويدخل عمل الفضيلة في بيتهما بكل الأشكال» (على التكوين مقالة ٤٨).

والقديس أمبروسيوس الذي يقول: «إننا نعترف بأن الله هو سيد الزواج وحارسه ولا يطيق أن يُدنس المضجع، فمن يخطأ خطيئة كهذه يخطأ ضد الله إذ يخالف الشريعة ويُسيء استعمال نعمته. ومتى خطىء ضد الله لا يقدر أن يشترك بالسر الإلهي» (في ابراهيم ١).

والقديس زينون الذي يقول: «إن محبة الزوجين تُقرن الشخصين جسدًا واحدًا بسر الزيجة إذا حُفظ بكرامته المستقيمة» (رسالة ١١).

وأوغسطينوس المغبوط الذي يقول: «إن قداسة السر في زيجتنا قوة أكثر من قوة ثمرة الأولاد في الأمم الوثنيين» (في الزيجة ١٨).

٤ـ ممارسة السر في الكنيسة

أقول: {{في القرون الثلاثة الأولى كان الزواج يتم حسب قوانين الدولة الرومانية وببركة الأسقف، كما يقول القديس الشهيد أغناطيوس الأنطاكي (+ ١٠٨): «واطلب أن يكون الاتحاد في الزيجة بموافقة الأسقف حتى يكون الزواج حسب الرب» (رسالته إلى بوليكاربوس فصل ٥:١). لكن إبتداءً من القرن الرابع وصاعدًا شدّد الأباء على قدسية الزواج؛ ولأن سر الشكر هو المحور الذي تقوم عليه الأسرار والحياة اللتورجيا بالتالي فإن الزواج كان يتم خلال القداس الإلهي. ثم فُصلت خدمة الزيجة عن خدمة القداس الإلهي في القرن التاسع}}.

الباب الثالث

إرتباطه مع ما سبقه من الأسرار،
القسم المنظور من سر الزيجة،
والقسم غير المنظور وفعله

١- علاقة سر الزيجة مع ما سبقه من الأسرار

إن الأسرار الثلاثة الأولى من أسرار الكنيسة الأرثوذكسية، أي "المعمودية" و"الميرون" و"الشركة"، لها غاية عمومية وهي أن يصير المتقدس بها مسيحيًا وينمو في الإيمان والتقوى ويحصل على الخلاص الأبدي. وأما السرَّان الآخران، أي "التوبة" و"الزيت المقدس"، فقد أُقيما لجميع المسيحيين علاجات شفائية وخلاصية. فـ"التوبة" لشفاء الأمراض الروحية و"الزيت المقدس" فللجسدية والروحية معًا. غير أنه يوجد سرَّان آخران أيضًا مرتبان من الرب وهما "سر الزيجة" و"سر الكهنوت"، وهذان السَّران المقدسان لم يُعيَّنا لجميع البشر وليسا ضروريين بلا بد لكل من أعضاء الكنيسة. لكنهما مع ذلك ضروريان على وجه العموم لمقاصد الكنيسة إجمالاً، فالسر الأول حفظ وجودها والسر الثاني لإقامة خدام لأسرارها وطقوسها.

٢- القسم المنظور من السر

القسم المنظور من سر الزيجة يقوم بعملين جوهريين،

أولهما: "الخُطبة"، أو "العربون". كانت العادة قبلًا أن تقام صلاة العربون عند عقد الخطبة منفصلة عن صلاة الإكليل. الخطبة تعني "رتبة خدمة العربون"، وكلمة "عربون" معناها في اللغة "كل ما يوضع سلفًا للتعاقد المستقبلي وعهدة لإتمامه"، بهذا المعنى تكون الخطبة معادلة للزواج المدني ببركة الكنيسة، وعند فسخ الخطبة تُدفع غرامة مالية. فيما بعد ألغيت الكنيسة الأرثوذكسية هذه العادة بتاتًا ولم تعد تسمح بها نظرًا لما قد يحدث بين الخطيبين من اختلافات قد تؤدي إلى فسخ الخُطبة، ويُكتفي عند عقد

الخطبة، أو العربون، بصلاة بسيطة فقط لمباركة الخطيبين وبتبريك الخواتم على اسم الثالوث القدوس مع تبادل الخطيبين الخواتم.

غير إنه، ولأن العربون هو جزء من الإكليل فقد أُلحِق بالإكليل، بذلك فإن خدمة "العربون" وخدمة "الإكليل" في الكنيسة الأرثوذكسية يأخذان غالبًا مكانهما الواحد تلو الآخر بلا انقطاع، فتبدء خدمة الزيجة المقدسة بصلاة العربون، أو الخطبة، وتليها مباشرة صلاة الإكليل. والجزء الأساسي من خدمة "الخطبة"، أو العربون، هو تبريك الخواتم وتبادلها عربونًا للرضا المتبادل الذي يعرب عنه الخطيبان بملء حريتهما. وتبادل الخواتم بين العروسين هو رمز لتبادل العربون الواحد، وهذا العربون إنما هو وضع ذاتهما في هدف واحد وهو بناء سعادة مستقبلية تترجم في التزام دائم ونهائي، وإقرار العريس والعروس علنًا قدام الكنيسة بأنهما قابلان الزواج بحريتهما التامة ورضاهما المتبادل، وأنهما يحفظان أحدهما للآخر أمانة زوجية إلى آخر نسمة من حياتهما. فمعنى العربون يساعد أكثر على فهم أبعاد فترة الخطوبة التي ليست انتظارًا للزواج بل مسؤولية ناضجة وواعية في الاستعداد الدائم له.

الخاتم في الكتاب المقدس يدل على ثقة أكيدة من أن الله لا يهمل مخلوقاته بل يتدبرها ويعطها النعم الموافقة للخلاص، وعلامة المسامحة والكرامة الملكية. كما في صلاة العربون (الخطبة) التي يتلوها الكاهن «لأنك أنت يارب المُوْعِز بإعطاء العربون، والثبات في كل شيء. فإنه بالخاتم أُعطي السلطان ليوسف في مصر، وبالخاتم شُرِّف دانيال في بلد بابل، وبالخاتم ظهر حق ثامار، وبالخاتم صار أبونا السماوي مترئفًا على الابن الضال إذ قال: "ضعوا الخاتم في يمينه واذبحوا العجل المثمن لنأكل ونفرح"».

وثانيهما: خدمة الإكليل. التي يعطي فيها الكاهن بركة رباط الزيجة، بأن يضع أحد الإكليلين على رأس العريس ويقول: «يُكلل عبد الله (فلان) على عبدة الله (فلانة) باسم الآب والابن والروح القدس»، ثم يضع الإكليل الآخر على رأس العروس ويقول: «تُكلل عبدة الله (فلانة) على عبد الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس»؛ لأن الإكليلان هما العلامة المنظورة على النعمة الخاصة التي يتلقاها الزوجان من الروح القدس من أجل أن

يؤسسا عائلة جديدة أو "كنيسة بيتية". لذلك مباشرة يتجه إلى الله ويقول هذه الطلبة: «أيها الرب إلهنا بالمجد والكرامة كللهما» ويباركهما ثلاثًا، ويتلو الصلاة التالية على العروسين بالقول: «أيها الرب إلهنا... أنت احفظ الآن عبديك (فلان وفلانة) اللذين سررت أن يقترن أحدهما بالآخر. أحرسهما بالسلامة والاتفاق ، أظهر عرسهما مكرمًا واحفظ مضجعهما بريئًا من الدنس. سُرَّ وارتضي ان يدوما بعيشة نقية بلا دنس وأهلهما لشيخوخة مخصبة عاملَيْن بوصياك بقلوب نقية... الخ» (كتاب الأفخلوجي، ترتيب الإكليل). وقمة خدمة الإكليل هي في وضع إكليل من قِبَل الكاهن على رأس كلٍّ من العروسين.

اليوم في خدمة الإكليل يشرب الزوجان النبيذ من كأس واحدة. وقد رتبت الكنيسة هذه الممارسة حفاظًا منها على الممارسة القديمة في التقليد الكنسي الأصلي؛ حيث كان سر الزيجة يُتمَّم في القداس الإلهي الذي فيه يتناول العروسان من القدُسات الإلهية ليتقدسان ويتَّحِدَا بعضهما ببعض اتحادًا أبديًا وغير منفصل كما اتحاد المسيح بالكنيسة. فشُرب الزوجان النبيذ من كأس واحدة هو رمز للتناول من الذبيحة الإلهية في القداس الإلهي الذي كان يُتمَّم فيه قديمًا خدمة الزيجة، وإن أُعطِي معنى جديدًا وهو أنه تذكير بأعجوبة زواج قانا الجليل الذي باركه الرب يسوع المسيح بحضوره فيه، وإشارة إلى أنهما من الآن فصاعدًا سيتقاسمان حياة واحدة. لهذا اليوم تطلب الكنيسة الأرثوذكسية من العروسين التقدم للتناول من القدسات الإلهية في القداس الإلهي الأقرب لموعد أو يوم عقد إكليلهما لتقديسهما.

بعد الكأس المشتركة يدور الكاهن والعرسان والإشبينان حول المائدة الموضوع عليها الإنجيل المقدس وصليب بشكل دائري، دلالة على الكمال الأبدي للزيجة.

٣- القسم غير المنظور من السر وفعله

في هذا السر ينال العروسان فعل النعمة الإلهية غير المنظور، الذي يقوم إجمالاً حسب تعليم بولس الرسول بأن النعمة الإلهية تحول الزيجة الطبيعية إلى سر عظيم يُصوَّر اتحاد المسيح بالكنيسة اتحادًا سريًا كما

يقول: "هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ" (أف ٥:٣٢).

فالنعمة الإلهية،

أولاً: تُقدس رباط الزيجة وتحوله إلى رباط روحي؛ لأن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد مقدس وروحي، لذلك يقول بولس الرسول: "لِيَكُنِ الزِّوَاجُ مُكَرَّمًا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، وَالْمَضْجَعُ غَيْرَ نَجِسٍ" (عب ١٣:٤). ويوصي الزوجين بقوله: "لأَنَّ هذِهِ هِيَ إِرَادَةُ اللهِ: قَدَاسَتُكُمْ. أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الزِّنَا، أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَقْتَنِيَ إِنَاءَهُ بِقَدَاسَةٍ وَكَرَامَةٍ" (١تس ٤:٣و٤).

ويوحنا الذهبي الفم في شرحه لقول لبولس الرسول: "وَأَمَّا أَنْتُمُ الأَفْرَادُ، فَلْيُحِبَّ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ هكَذَا كَنَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَلْتَهَبْ رَجُلَهَا" (أف ٥:٣٣)، يقول: «لأن كل واحد أخذ ما له، فهذا الزواج إذًا هو زواج بحسب المسيح هو زواج روحي وولادة لا من دم ولا من مخاض كما أن ولادة إسحق كانت هكذا. واسمع ماذا قال الكتاب المقدس "وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ" (تك ١٨:١١). فلم يكن الزواج عن هوى ولا كان زواجًا جسديًا بل كان كله روحيًا، زواج نفس اتحدت بالله اتحادًا يفوق الوصف كما يعلم هو وحده. ولهذا يقول إن مَنْ يلتصق بالرب يكون روحًا واحدًا، وانظر أنت كيف يجتهد في أن يقرن الجسد بالجسد ويجمع بين الروح والروح» (على أفسس مقالة ٢٠).

ثانيًا: تُساعد الزوجين على أن يدوم الزواج غير منفصل في كلا الشخصين، كما اتحاد المسيح بالكنيسة هو أبدي وغير منفصل (أف ٥:٢٥-٢٧). وهذا الأمر عينه يُفهم من أقوال المخلص، بقوله: "فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ" (مت ١٩:٦). وقد جمع الله الزوجين أولاً بناموس الزيجة الذي أعطاه منذ بدء العالم بإعلان العهد القديم، ثم بنعمته أيضًا التي منحها للمتحدين بالشركة الزوجية في سر العهد الجديد.

ثالثًا: تُساعد العروسين مدة حياتهما لأن يُتمما الواجبات المفروضة على كل منهما نحو الآخر طبقًا للنموذج السامي في اتحاد يسوع المسيح بالكنيسة حسب وصية بولس الرسول: "أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا" (أف ٥:٢٥)، "كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (أف ٥:٢٤). فلو لم تتأيد

القوى البشرية بالنعمة الإلهية، لكانت قدرتها للتمثل بهذا النموذج السامي يفوق حدودها. فبقوة النعمة الإلهية إذًا وبمعاضدتها يُتمم الزوجان المسيحيان واجبتهما كل نحو الآخر مدة حياتهما، ويتممان أيضًا كل مقاصد اتحادهما بالزواج. بمعنى أنهما يلدان أولادًا ببركة الله لازدياد أعضاء الكنيسة، ويتساعدان ويتعاضدان في كل عمل صالح، ويعين أحدهما الآخر ويحفظان نفسهما من الرباطات الدنسة والمخالفة للشريعة.

الباب الرابع

مَنْ له أن يُتمم سر الزيجة،
مَنْ لهم حق التقدم لنوال السر

١- مَنْ له السلطان لتتميم السر

إن السلطان في إقامة سر الزواج وسائر الأسرار المسيحية هو مختص دائمًا منذ ابتداء المسيحية إلى الآن برعاة الكنيسة، وهم الأساقفة والكهنة.

كما يشهد بذلك القديسين أغناطيوس الأنطاكي (رسالته إلى بوليكاربوس فصل ٦)، ترتليانوس (في الهرطقات فصل ٤٠)، باسيليوس الكبير (في شرحه الستة أيام مقالة ٧)، غريغوريوس الثاولوغوس (رسالة ٥٧)، يوحنا الذهبي الفم (في الزنى ٢)، أمبروسيوس (رسالة ٩)، وكل محفل رعاة مجمع قرطاجنة المقدس مثل البابا سيريكيوس (رسالة ١) والبابا إينوشنسيوس (رسالته ٦و١٠). وكذلك القديسين تيموثاوس بطريرك أنطاكية (جوابه على السؤال ٢)، ثاودوروس الاسطوذيني (رسالة ١)، نيكوفورس بطريرك القسطنطينية (فصل ٣٤)، فوتيوس بطريرك القسطنطينية (مجموعة قوانينه جزء ٣)، وآخرين كثيرين.

٢- الذين لهم حق التقدم للسر

بحسب قوانين الكنيسة الأرثوذكسية الذين يتقدمون إلى الاقتران الزوجي يجب:

أولاً: أن يكونوا مسيحيين، لأن الإنسان بدون الإيمان بالمسيح لا يستحق النعمة الإلهية المعطاة بهذا السر أو بغيره. وبالإجمال لا يستطيع أحد أن يشارك المواهب الروحية الممنوحة في مُلك نعمة يسوع المسيح إن لم يدخل أولاً في هذا المُلك من باب المعمودية، كما يقول الرب نفسه: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ، إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥). فعلى ذلك تكون الزيجة مع غير المؤمنين ممنوعة بالكلية عن المسيحيين، كما ذُكر في القانون ١٤ للمجمع الرابع المسكوني والقانون ٧٢ للمجمع السادس المسكوني.

ثانيًا: ١- أن يكون كلا العروسين أرثوذكسيين، لأنه لا تبرير لنوال غير الأرثوذكسيين بركة الله والنعمة الممنوحة في سر الزيجة من أسقف أو كاهن أرثوذكسي قبل أن يعترفوا بالإيمان الأرثوذكسي، إيمان الكنيسة التي يُكللان فيها وإيمان الأسقف أو الكاهن الذي يعقد زواجهما.

٢- أن يكون على الأقل أحد العروسين، إما العريس أو العروس، أرثوذكسيًا؛ لأنه نظرًا لاستقامة إيمانه تتحدر النعمة الإلهية وبركة الله عليهما في الإكليل، ليصير بحسب قول الرب: "يَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا" (مت ١٩:٥).

ولكن يشترط في ظرف كهذا أن يُستوثق من العضو غير الأرثوذكسي بوعد ثابت، أولاً: أنه لا يمس إيمان العضو الأرثوذكسي وأولادهما. ثانيًا: أن يتربى الأولاد المولودين منهما تربية أرثوذكسية ويُعمدوا أرثوذكسيًا.

ثالثًا: أن يكون العروسين بعيدَيْن عن القرابة الجسدية والمُعينة درجاتها من قوانين الكنيسة الأرثوذكسية (حتى الدرجة الرابعة)، والقرابة الروحية (أن لا يكون والد أو والدة أحد العروسين شبين في المعمودية للآخر).

الباب الخامس

شروط الزيجة المسيحية،
وشروط انفكاكها

١- شروط الزيجة المسيحية

الاقتران بامرأة واحدة فقط للرجل، ورجل واحد فقط للمرأة. فالمسيحية تمنع منعًا قطعيًا كثرة الأزواج، وهذا الناموس هو الذي وضعه الله منذ البدء في الطبيعة البشرية بالنسبة للزيجة كما يقول الكتاب المقدس: "خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ... ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ" (تك ١:٢٧). فقد "جَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً" (تك ٢:٧)، "وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ، لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ... فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ. لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا" (تك ٢:١٨-٢٤). وقد ثبت ربنا يسوع المسيح هذا الناموس وشرحه، فقال لليهود: "أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا" (مت ١٩:٤و٥).

والقديس بولس الرسول لا يخالف في تعليمه تعليم ربه وسيده، فيقول: "لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْتَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا" (١كو ٧:٢). وأضاف قائلاً: "لِيُوفِ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ حَقَّهَا الْوَاجِبَ، وَكَذلِكَ الْمَرْأَةُ أَيْضًا الرَّجُلَ. لَيْسَ لِلْمَرْأَةِ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهَا، بَلْ لِلرَّجُلِ. وَكَذلِكَ الرَّجُلُ أَيْضًا لَيْسَ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهِ، بَلْ لِلْمَرْأَةِ" (١كو ٧:٣و٤)، بقوله هذا أوضح أن الزيجة المسيحية تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات بين الزوجين بعدم تسلط أي منهما على الآخر بإيفاء كل منهما للآخر الحقوق الواجبة. وهذه المساواة ليست حقوقية كما أن الحقوق والواجبات ليست قانونية، بل أساسها المحبة بين الزوجين؛ والتي قال فيها أيضًا بولس الرسول: "اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَصْنَعُ

شَرًّا لِلْقَرِيبِ" (رو ١٣: ١٠)، "الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ... الْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ، وَلاَ تَنْتَفِخُ" (١كو ١٣: ٤). كما أوضح الرسول مسلك المحبة بقوله: "اسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضًا وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، قُرْبَانًا وَذَبِيحَةً للهِ رَائِحَةً طَيِّبَةً" (أف ٥: ٢).

لذا شَخَص بولس الرسول اتحاد الزوجين المسيحيين بالزيجة بصورة اتحاد المسيح والكنيسة، بقوله: "لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ... وَلكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا" (أف ٥: ٢٣-٢٥). وهذا التعليم في شريعة الزواج هو تعليم الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة عمومًا.

٢- شروط انفكاك الزيجة المسيحية

أقول: {{إن الكنيسة الأرثوذكسية، مع منعها تعدد الزوجات، في شروط حكمها بانفكاك الزيجة لا تخرج عن الشروط أوضحها الرب يسوع بقوله لليهود في العظة على الجبل: "وَقِيلَ (للقدماء)، مَنْ سَرَّحَ [" ά πολύσῃ" (apolisi)] امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا تَسْرِيحَ ["ά ποστάσιον" (apostasion)]. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ، إِنَّ مَنْ يُسَرِّحُ ["ὁ ά πολύων" (o apolion)] امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُسَرَّحَةً [" ἐ ὰ ν ά πολελυμένην" (ean apolelimenin)] فَإِنَّهُ يَزْنِي" (مت ٥: ٣١و ٣٢).

وبقوله للفريسيين عندما سألوه: "هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُسَرِّحَ ["ά πολῦ σαι" (apolisai)] امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ"، "فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ، أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَقَالَ، مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ"، "قَالُوا لَهُ، فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ تَسْرِيحٍ [" τὸ βιβλί ον τοῦ ά ποστασί ου" (to vivlion tou apostasiou)] فَتُسَرَّحُ ["ά πολῦ σαι" (apolisai)]. قَالَ لَهُمْ، إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُسَرِّحُوا ["ὐ μῖ ν ά πολῦ σαι" (imin apolisai)] نِسَاءَكُمْ.

وَلَكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ، إِنَّ مَنْ سَرَّحَ (ἀπολύσῃ) امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَب الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي" (مت ١٩:٣-٩).

وكذلك بقوله عندما "تَقَدَّمَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَسَأَلُوهُ، هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُسَرِّحَ (ἀπολῦσαι) امْرَأَتَهُ، لِيُجَرِّبُوهُ"، "فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ، بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى. فَقَالُوا، مُوسَى أَذِنَ أَنْ يُكْتَبَ كِتَابُ تَسْرِيحٍ (βιβλίον ἀποστασίου)، فَتُسَرَّحُ (ἀπολῦσαι). فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ، مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ كَتَبَ لَكُمْ هذِهِ الْوَصِيَّةَ، وَلكِنْ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا اللهُ. مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ"، "ثُمَّ فِي الْبَيْتِ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ أَيْضًا عَنْ ذلِكَ. فَقَالَ لَهُمْ، مَنْ سَرَّحَ (ἀπολύσῃ) امْرَأَتَهُ وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي عَلَيْهَا. وَإِنْ سَرَّحَتِ (ἀπολύσασα) امْرَأَةٌ زَوْجَهَا وَتَزَوَّجَتْ بِآخَرَ تَزْنِي" (مر ١٠:٢-١٢).

وأيضًا بقوله للفريسيين: "كُلُّ مَنْ يُسَرِّحُ (ὁ ἀπολύων) امْرَأَتَهُ وَيَتَزَوَّجُ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَكُلُّ مَنْ يَتَزَوَّجُ بِمُسَرَّحَةٍ (ὁ ἀπολελυμένην) مِنْ رَجُل يَزْنِي" (لو ١٦:١٨).

فالكلمة اليونانية " ἀπολύσῃ" معناها الحرفي بالعربية هو "سَرَّحَ". والكلمة اليونانية "ἀποστάσιον" معناها الحرفي بالعربية هو "تسريح". والعبارة اليونانية "βιβλίον ἀποστασίου" معناها الحرفي بالعربية هو "كتاب تسريح". وكلمة اليونانية "ἐξαποστείλῃς" معناها الحرفي بالعربية هو "طلاق".

هذه الكلمات اليونانية، المذكورة أعلاه، تتوضح معانيها من الترجمة العربية لإنجيل متى، بقول متى: "فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا (ἀπολῦσαι αὐτήν) سِرًّا" (مت ١:١٩). من هذه الآية فإن الكلمة اليونانية " ἀπολύσῃ" معناها الحرفي بالعربية، كما هي مترجَمَة هنا في هذه الآية، هو "أخْلَى"، و"سَرَّحَ".

كما تتوضح معانيها من الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم العبري، التي استشهد منها يسوع في بعض أحاديثة والتي كانت معتمدة ومقدسة لدى اليهود من ذلك الزمان وحتى اليوم، كما أنها معتمدة ومقدسة في جميع الكنائس من القرون المسيحية الأولى حتى اليوم، لسفر إشعياء النبي: "هكَذَا

قَالَ الرَّبُّ، أَيْنَ كِتَابُ تَسْرِيحِ ["סֵפֶר כְּרִיתֻת" " τὸ βιβλίον τοῦ ἀποστασίου"] أُمِّكُمُ الَّتِي طَلَّقْتُهَا ["שִׁלַּחְתִּיהָ" " ᾧ ἐξαπέστειλα αὐτήν"]... وَمِنْ أَجْلِ ذُنُوبِكُمْ طُلِّقَتْ ("שֻׁלְּחָה" "ἐξαπέστειλα") أُمُّكُمْ" (إش ٥٠:١). مما ذُكر عند إشعياء النبي ومما ذُكر عند الإنجليين الثلاثة فإن يسوع المسيح لم يتكلم عن "ἐξαποστείλῃς" بمعنى "الطلاق"، بل تكلم عن "ἀποστάσιον" بمعنى "التسريح"؛ لأن اليهود كانوا يهجرون زوجاتهم كعقاب منهم لهن فتظل زوجاتهم مرتبطات بزواج غير قائم بسبب الهجر. فكلام يسوع المسيح كان تقريعًا لهم لمخالفتهم ما أوصاهم به موسى النبي، بتركهم زوجاتهم بدون أن يعطيهن "كتاب تسريح" (βιβλίον ἀποστασίου)، أي مُطلق حال، بمعنى كتاب طلاق.

ففي هذه الأقوال ليسوع المسيح التي قالها للفريسيين ولليهود:

"وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ، إِنَّ مَنْ يُسَرِّحُ ["ὁ ἀπολύων" (o apolion)] امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُسَرَّحَةً [" ἐὰν ἀπολελυμένην" (ean apolelimenin)] فَإِنَّهُ يَزْنِي" (مت ٥:٣٢).

"وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ سَرَّحَ (ἀπολύσῃ) امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي" (مت ١٩:٩).

"فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ سَرَّحَ (ἀπολύσῃ) امْرَأَتَهُ وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي عَلَيْهَا. وَإِنْ سَرَّحَتِ (ἀπολύσασα) امْرَأَةٌ زَوْجَهَا وَتَزَوَّجَتْ بِآخَرَ تَزْنِي" (مر ١٠:١١و١٢).

"كُلُّ مَنْ يُسَرِّحُ (ὁ ἀπολύων) امْرَأَتَهُ وَيَتَزَوَّجُ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَكُلُّ مَنْ يَتَزَوَّجُ بِمُسَرَّحَةٍ (ὁ ἀπολελυμένην) مِنْ رَجُلٍ يَزْنِي" (لو ١٦:١٨).

لم تأت على فم يسوع المسيح مطلقًا صيغة "الطلاق" (ἐξαποστείλῃς)، التي هى صيغة تشريعية؛ لأن الطلاق مرهون بالشريعة الموسوية التى أقرت الطلاق على شرط كتابة صك، أي كتاب تَسْرِيح (βιβλίον ἀποστασίου)، وليس كيَمِين يُوْقّع على المرأة شفهيًا. والمسيح لم يشرِّع شريعة جديدة بعد إلغاء شريعة سابقة، بل فى الواقع أضاف إليها بأنه ليس للرجل أن يهجر إمرأته، أي يُسَرِّح ["ἀπολῦσαι"

(apolisai)] امرأته بأن يُوْقّع عليها يَمين تَسْرِيحها شفهيًا، بدون أن يعطيها كتاب طلاق، أي كتاب تَسْرِيح (βιβλίον ἀποστασίου)، لئلا يزني إن تزوج بأخرى. كما أن الرجل يزني إن تزوج بإمرأة هجرها زوجها ولم تنل منه كتاب طلاق، وكذلك المرأة تزني إن تزوجت بآخر إن كان زوجها هجرها ولم يعطِها كتاب الطلاق. فالقول التفسيري الذى ورد على لسان المسيح في الآيات السابقة هو: "كل مَن هجر إمرأته إلا لأشاعة عن فحشاء يجعلها تزني، ومن يتزوج بمهجورة فهو يزني بها"، ولم يتدخل له المجد فى حديثه عن "طلاق" بمعناه القانوني الشائع.

كما أن هذه الأقوال ليسوع المسيح قد قالها للفريسيين ولليهود في (مت ٥:٣١و٣٢) و(مت ١٩:٣-٩) و(مر ١٠:٢-١٢) و(لو ١٦:١٨) لأن اليهود كانوا يتركون (يهجرون) زوجاتهم "لأيَّة سبب"، بمعنى "لِكُلِّ سَبَبٍ". فالمسيح في أقواله هذه، عند متى ومرقص ولوقا، كان يرد على سؤال الفريسيين عن الهجر؛ لأنه ببساطة أعلن منذ البداية أنه لم يأتِ لينقض بل ليُكمل، لذلك لم يناقش، له المجد، الطلاق نفسه لكنه يُعَقّب على سبب الهجر، وهو ورد على نحو ما كان يظنه الفريسيون مبهمًا فى ذلك الحين للنص الموجود فى سفر التثنية، بقول الرب: "إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ تَسْرِيحٍ (τὸ βιβλίον τοῦ ἀποστασίου) وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا (ἐξαποστελεῖ αὐτὴν) مِنْ بَيْتِهِ، وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ تَسْرِيحٍ (τὸ βιβλίον τοῦ ἀποστασίου) وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا (ἐξαποστελεῖ αὐτὴν) مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الَّذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، لاَ يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَّذِي طَلَّقَهَا (ὁ ἐξαποστείλας αὐτὴν) أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ. فَلاَ تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا" (تث ٢٤: ١-٤). حتى إنه تصارعت مدرستان فى التفسير هذا النص، مدرسة الرابي (أي معلم الشريعة اليهودية) "عاكيبا" الذي سمح بالطلاق إن وجد الزوج إمرأة أجمل من زوجته، ومدرسة الرابي "هليل" التي كانت أكثر تساهلًا فسمح بالطلاق لمجرد فشل الزوجة فى القيام بواجباتها حتى لو

كان هذا الواجب هو طبخ الطعام لزوجها وأفسدته. وقد شاع عند اليهود هجر الزوج لزوجته وطردها من البيت دون أن يعطيها كتاب التطليق ويأتي بزوجة جديدة ويضطجع معها. فالمسيح كان يعقب على ما شاع فى الأجواء فى مجتمعه فى ذلك الوقت والتي كانت معروفة له وللفريسيين، دون التطرُّق للطلاق فى حد ذاته مثلما كان يقول "عاكيبا" و"هليل".

ويسوع المسيح في تقريعه لليهود لهجر الزوج زوجته لأي سبب وزواجه بإمرأة أخرى، كما ذُكر سابقًا، وردًا على سؤال الفريسيين واليهود له "هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أنْ يُسَرِّحَ (ἀ πολῦ σαι) امْرَأتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ" (مت ١٩:٣)، أكد لهم شريعة الزوجة الواحدة، وأن الذي يجمع الزوجين هو الله، وأن حلَّ رباط الزوجية مكروه منه وهو خطيئة، وعدم انفكاك الزيجة هو نتيجة طبيعية من الشريعة الأولى التي اشترعها الخالق في أمر الزواج، وذلك بقوله لهم: "أمَا قَرَأتُمْ أنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَقَالَ، مِنْ أجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إنْسَانٌ" (مت ١٩:٤-٦). وعندما استصعب تلاميذ يسوع المسيح قوله هذا وقالوا له: "إنْ كَانَ هكَذَا أمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأةِ، فَلاَ يُوافِقُ أنْ يَتَزَوَّجَ" (مت ١٩:١٠)، أجابهم قائلاً: "لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم، لأنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أنْفُسَهُمْ لأجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ" (مت ١٩:١١و١٢). بهذا وضع يسوع المسيح قانون القدرة والاستطاعة لتنفيذ الوصايا الصعبة؛ لأن منهجه قائم على علاج المغفرة وليس العقاب الجسدي المؤبد بمنع الزواج إلى الأبد؛ فالمسيح جاء لشفاء الإنسان من ضعفة البشريّ، لعلمه بعدم قدرة بعض الأشخاص من التمكن من تكميل هذه الوصية الإلهية بالتمام بسبب ضعف طبيعتهم البشرية، كما ترك، له المجد، لكل شخص على قدر استطاعته أن يظل بلا زواج إن حُلَّ زواجه أو أن يتزوج مرة أخرى لئلا يقع في الخطيئة، لكن على أن يكون ذلك بضوابط حددتها الكنيسة المقدسة بالسلطة الممنوحة لها من الرب يسوع المسيح نفسه، بقوله لرسله وبهم لخلافائهم من تلاميذهم:

"اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ" (يو ٢٠:٢٣).

إن الكنيسة الأرثوذكسية تحذو حذوَ يسوع المسيح، الذي أكد على شريعة الزوجة الواحدة وسمح باستثناءٍ واحد في قانون عدم فك الارتباط في الزواج، وهو الزنا. كما أنها أيضًا تحذو حذوَ يسوع المسيح، الذي لعلمه بعدم تمكُّن الإنسان من تكميل الوصايا الإلهية بالتمام على الوجه الأكمل بسبب ضعف طبيعته البشرية، بقوله لتلاميذه: "لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم"، ترك له المجد لكل شخص على قدر استطاعته أن يظل بلا زواج إن حُلَّ زواجه أو أن يتزوج مرة أخرى لئلا يقع في تجربة، بقوله أيضًا لتلاميذه: "مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ". بهذا، فإن الكنيسة الأرثوذكسية تساعد الخطأة؛ إذ تمنحهم فرصة أخرى بإباحتها فسخ الزواج الأول وسماحها بالزواج الثاني، لكنها في نفس الوقت تفرض عقوبات تأديبية على مَن تسبب في فسخ الزواج.

كما أن الكنيسة الأرثوذكسية بإباحتها فسخ الزواج وسماحها الزواج الثاني تحزو حزوَ الآباء القديسين في تفسيرهم لأقوال الرب يسوع السابق ذكرها أعلاه، (مت ٥:٣١و٣٢) و(مت ١٩:٣-٩) و(مر ١٠:٢-١٢) و(لو ١٦:١٨). فالقديس يوحنا الذهبي الفم في العظة ١٧ على إنجيل متى فقرة ٤، (4Chrysostom, Homily 17 on Matthew, Ch 4)
http://www.newadvent.org/fathers/200117.htm
يقول: «(قال الرب) "وقيل مَن سرّح امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم إن مَن سرّح امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني. ومن يتزوج ممن سُرِّحت فإنه يزني" (مت ٥:٣١ و٣٢).

وبعد أن أوضح (الرب) جيدًا الأمور السابقة، بدأ الرب في عرض مفهوم الزنا بشكل جديد، فما هو؟ لقد كان هناك ناموس قديم معمول به أن من يكره إمرأته لأي سبب من الأسباب يمكنه أن يسرِّحها، وأن يأتي بأخرى إلى البيت بدلاً منها (تث ٢٤: ١-٤) ["إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ تَسْرِيحٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ، فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ تَسْرِيحٍ وَدَفَعَهُ إِلَى

يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الَّذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، لاَ يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ. فَلاَ تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا"]، ولم يأمره الناموس أن يفعل هذا ببساطة، بل لابد أن يعطيها كتاب طلاق حتى لا تعود إليه أبدًا، حتى يبقى الزواج في شكله الشرعي قائمًا؛ لأنه لو لم يُشَرِّع (الرب) ذلك، لكان من الشرعي أولاً أن يُسَرّح الزوج زوجته ويرتبط بأخرى، ثم يعود فيأخذ الأولى التي سرّحها، فتعم الفوضى بشكل كبير، ويتخذ الرجال زوجات الآخرين باستمرار، ولأصبح الأمر بمثابة زنا مباشر. لهذا شرِّع الرب كتاب الطلاق كنوع من تسهيل الأمور.

ولكن لأسباب أخرى غير التسهيل شرّع الرب هذه الأمور، لسبب شرور عظيمة. أعني أنه لو كان الرب قد أجبر أن يترك الزوج الكاره زوجته في بيته، لقتلها بسبب كراهيته لها. لأنه هكذا كان طبع اليهود الذين لم يشفقوا على الأطفال وذبحوا الأنبياء "وسفكوا الدماء كالماء" (قابل مز ٧٩: ٣)، وبالأكثر كانوا لن يرحموا النساء. لهذا سمح بالضرر الأقل ليزيل الضرر الأكبر، حتى لو لم يشرعه في ناموسه الأصلي، إذ تسمعونه يقول: "لقساوة قلوبكم أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق" (مت ١٩: ٨). حتى لا تذبحون النساء في البيوت، بل بالأحرى تسرِّحوهن (تُطلقن سراحهن). هكذا لم يحرم الرب القتل فقط، بل نزع كل مشاعر الغضب، فشرع هذا التشريع بيسر. وبهذا المفهوم استحضر في الأذهان الكلمات السابقة مؤكدًا أن أقواله ليست مناقضة لما سبقها، بل تتفق معها وتقويها، ولا تنقضها بل تكملها.

تأملوا في كل مرة يخاطب فيها الرجل فيقول: "مَن يسرّح امرأته يجعلها تزني. ومن يتزوج ممن سُرّحت يزني". ففي الحالة الأولى ورغم أن الرجل لم يتزوج بأخرى بعد، فإنه ملوم لمجرد الفعل إذ جعل زوجته تقترف الزنا، وفي الحالة الثانية يصبح من تزوج بمن سُرّحت (أيّ التي لم تحصل على كتاب تسريح) زانيًا لأنها على ذمة آخر. وإلا فاخبرني، الآخر سرّحها، فهي مع هذا لا تزال زوجة الذي طردها، وحتى لا تتشبث المرأة برأيها إذا أُلقي باللائمة على الزوج الذي سرّحها. لهذا أغلق (الرب) في وجهها الأبواب

أمام مَن يقبلها في بيته. إذ يقول: "ومَن يتزوج ممن سُرّحت يجعلها تزني". والمسيح بذلك يريد عفة المرأة حتى لو ضد رغبتها، وحتى لا تصبح مصدرا للغيرة. وحتى تعي جيدًا أن عليها واجب الحفاظ على زوجها الذي كان من نصيبها أصلاً، أو أن تتصرف من بيته بلا ملجأ آخر، عندها ولو ضد إرادتها تحاول أن تبذل أقصى ما في وسعها لأجل استمرار الزواج.

وإن لم يكن السيد المسيح قد أفصح عن هذه الأمور كلها فلا تتعجبوا، لأن المرأة مخلوق ضعيف، ولهذا في تهديده الرجال بخصوص تسريحها يقوّم من إهمالها. مثلما يكون لإنسان ابن ضال فيتركه ويوبخ الذين تسببوا في ذلك، ويمنعهم أن يتصلوا به أو يتحدثوا إليه. فإن تضايقتم من هذا التصرف، أرجوكم تذكروا أقوال الرب السابقة، وكيف يطوّب سامعيه. وسترون أنه من السهل على من يلتزم بكل الوصايا، لأن الوديع والمسالم والمسكين بالروح والرحيم هل يسرّح امرأته؟ ومن اعتاد أن يُصالح الآخرين، هل يمكن أن يتخاصم مع خاصته؟

وليس هكذا فقط، بل بطريقة أخرى خفّف (المسيح) الوصية لأنه ترك لنا استثناءًا، حين يقول "لا يتم هذا إلا لعلة الزنا" لأنه إن كان قد أوصى منذ البدء أن يحتفظ الزوج بها في بيته، رغم تدنيسها نفسها مع كثيرين، لجعل الأمر ينتهي مرة أخرى إلى الزنا. هل ترون كيف تتفق تلك الأقوال مع سابقاتها؟ لأن من ينظر إلى امرأة غيره بعيون عفيفة، لن يرتكب الزنا، وبذلك لن يعطي لزوج المرأة الأخرى أية فرصة لتسريحها.

بهذا يشدد الرب على هذه الجزئية دون تحفّظ ليجعل من المخافة حصنًا منيعًا، ملقيًا على الزوج خطرًا جسيمًا إن سرّح امرأته. إذ يحسبه مسئولاً مسئولية شخصية عن زناها. لهذا لئلا يفتكر أحد في قوله "تقلع عينيك" أن يكون مثيله أن "تتخلص من زوجتك"، فأضاف في الوقت المناسب هذا التعديل إن أراد أن يسرحها وليس لأي عذر آخر».

لهذا، من الناحية النظرية تمنح الكنيسة الأرثوذكسية فسخ الزواج، أي الطلاق كما عند اليهود، في حالة الزنا فقط. لكنها أحيانًا تمنح فسخ الزواج لأسباب وجيهة أخرى، وهي في حالة استحالة استمرار الحياة الزوجية بما يتوافق مع الغاية من سر الزيجة المقدس القائم على محبة وأمانة كل من الزوجين للآخر؛ لأن سر الزيجة المقدس هو عهد يقطعه الزوجان على

نفسيهما أمام الله والكنيسة بحفظ ما رُسم وحُدِّد لهما في الوصايا الإلهية التي تُليت عليهما وقت إقامة السر. وبكسر أي من الزوجين هذا العهد، بعدم حفظ ما رُسم وحُدِّد لهما في الوصايا الإلهية التي تُليت عليهما وقت إقامة سر الزواج، يفصل نفسه عن شريكه الآخر. لكن أيضًا عند وقوع حادث مثل هذا، فإن الكنيسة تشدد على أنه حسن إن أمكن حفظ رباط الزواج بمصالحة الزوجين، فيكون الزواج غير منحل.

إن الكنيسة الأرثوذكسية تنظر للزواج على أنه مبدئيًا غير قابل للحل وتعتبر فسخه خطيئة، لكنها، رغم إدانتها الخطيئة، فهي تساعد الخطأة؛ إذ تمنحهم فرصة أخرى بإباحتها فسخ الزيجة الأولى وسماحها بالزيجة الثانية، وذلك حينما لا يعود الزواج حقيقة واقعة، ولا تتشبث بالحفاظ على وهم شرعي. فيُنظر منها إلى فسخ الزواج كتساهل استثنائي ولكنه ضروري بسبب الخطيئة البشرية، إنه فعل تدبير كنسي ["οικονομία" (eikonomia)] وفعل من محبة الله للبشر ["Φιλανθρωπία" (Philanthropia)]، لكن مع فرض تأديبات كنائسية، كما تأمر القوانين الرسولية: «وهكذا يجب أيضًا أن تصنع (الكنيسة) بالذين يتوبون عن خطاياهم، أي نفصلهم زمانًا محددًا كمقدار خطيئتهم، وبعد هذا إذا تابوا نقبلهم إلينا كما يقبل الأباء أبنائهم إليهم» (القانون ٨:٤). أمّا سبب هذه العقوبات فهو أنّ الكنيسة وإن ترى في الزواجات المتعدّدة علاجًا للميل الجانح نحو شهوة الجسد غير أن هذا الميل لا يتلاءم والأخلاق المسيحية.

كما أنها، وهي تساعد الرجل والمرأة على النهوض بعد السقطة، تعلم تمامًا أن الزواج الثاني لا يمكن أن يكون مثل الأول، لذا فإن جُزءًا من الاحتفالات التي تشير إلى الفرح في خدمة الإكليل يجري إلغاؤها وتُستبدل بصلوات التوبة. والزواج الثالث غير مُستَحَبَّ لديها، أما الرابع فهو مرفوض كليًا منها}}.

إن الكنيسة الأرثوذكسية بعدم منعها الزيجة الثانية، تحزو أيضًا حزو الآباء القديسون الذين لا يمنعون الزيجة الثانية (كيرلس الأورشليمي عظة ٢٦:٤، باسيليوس الكبير رسالة ٤:١٦١) تساهلاً للضعف البشري معتبرين هذا الأمر نقصًا في الكمال المسيحي (إمبروسيوس في الأرامل فصل ٩، يوحنا الذهبي الفم في عدم إعادة الزواج فصل ٢). وعلى ذلك حددوا في

قوانينهم أن الذين يطلبون الزيجة الثانية ينبغي أن يوضعوا تحت قانون كنائسي لأنهم لم يحفظوا العفاف المأمور به المسيحيون (القانون ١ لمجمع اللاذقية، القانون ٤ و٨٧ من قوانين القديس باسيليوس الكبير). وأن يُقتصر في طقس أكاليلهم على بعض القطع والصلوات التي في طقص الإكليل الأول (يوحنا الذهبي الفم في عدم إعادة الزواج فصل ٢، أمبروسيوس المقالة٧ على ٢كو فصل ٥٠). فالزيجة الثانية لدى الآباء القديسون هى من أجل الضعف البشري على أن تفرض على من يشترك فيها عقوبة كنائسية، أما الثالثة فقد أعتبرت في قوانينهم لوثة جسدية للجسد ولا تسمح بها الكنيسة إلا بعد قانون كنسي أثقل من الزيجة الثانية. وما فوق ذلك من زيجة رابعة لا فرق بينها وبين تكثير الزوجات لهذا مُنعت الزيجة الرابعة منعًا قطعيًا (باسيليوس الكبير القانون ٤ و٥٠ و٨٠).

ومن أقوال الآباء القديسين عن العقوبات الكنائسية:

القديس باسيليوس الكبير يقول: «الذين تزوّجوا للمرّة الثانية يوضَعون تحت عقوبة كنسيّة لمدة سنة أو سنتين. والذين تزوَّجوا للمرَّة الثالثة لمدة ثلاث سنين أو أربع. ولكن لنا عادة أنّ الذي يتزوّج للمرّة الثالثة يوضع تحت عقوبة لمدة خمس سنوات، ليس بقانون وإنّمَا بالتقاليد» (القانون ١٦٠ و٨٢ و٤٥).

ويقول أيضًا: «وأما الزيجة الثالثة فقد اعتبرت في قوانين الآباء لوثة جسدية، ولا تسمح بها الكنيسة إلا بعد قانون كنسي أثقل من قانون الزيجة الثانية. وما فوق ذلك من زيجة رابعة لا فرق بينه وبين تكثير الزوجات والأزواج، ولهذا فقد مُنعت الزيجة الرابعة منعًا قطعيًا» (القانون ٤ و٥٠ و٨٠)؛ لأنه كما يقول القديس غريغوريوس النزينزي: «الزواج الأوّل شريعة، والثاني تسامح، والثالث تعدِّ... أمّا الرابع فأشبه بسلوك الخنازير» (القانون ١٦٠ و٨٢ و٤٥).

لاهوت الزواج

الزواج عند الذهبي الفم

(المطران بولس يازجي)

عبر تاريخ أدبنا المسيحي شدّد آباؤنا على مزايا الرهبنة وفضائلها كما شدّدوا على مزايا الزواج. فالزواج والبتولية هما وجهان لطريق واحد، الطريق الضيّقة المؤدية إلى الحياة، وكلاهما يحققان عفة الروح. لدينا مثال هو موسى وإيليا في حادثة تجلي المسيح على جبل ثابور، فقد كان موسى الذي تزوج وإيليا الذي تبتّل حول المسيح في المجد ذاته، فلم يمنع الزواج ما حققته البتولية. وهذا دليل على أن هذه الطريقة (الزواج) ليست أدنى بل هي الوجه الآخر.

إن مباركة المسيح للزواج في عرس قانا الجليل، كما في المقطع الإنجيلي الذي يُقرأ في طقس الزواج في الكنيسة الأرثوذكسية، هو بركة دائمة. في المجمع المسكوني الأول طُرحتْ مسألة الاكليروس المتزوج، والذي دافع عن ذلك كان الراهب المتشدد بافنوتيوس (Παφνουτιος). على عكس الآباء والكتّاب الغربيون مثل كبريانوس وأمبروسيوس وايرونيموس وأفغوسطينوس حيث ظهر الميل الشديد إلى البتولية مع الانتقاص من قيمة الزواج بشكل ملاحظ وشديد. من هذه المصادر المتطرّفة الأخيرة، وللأسف، تنهل أغلب الدراسات الغربية الانثروبولوجية اليوم، وكنتيجة حتميّة، لذلك يلغى فيها التوازن الأخلاقي الموجود بين الزواج والبتولية، الذي نراه عند آبائنا الشرقيين، وهكذا يتحورّ المفهوم المسيحي الحقيقي وتفسد روح الكتاب عينه كما يُخان الفهم الآبائي الصحيح.

إن هدف الزواج هو الكمال الروحي. فالزواج لا يشكل حجة للكسل والتهاون في سبيل الهدف المشترك لكل المسيحيين أو هروبًا من الجهاد المطلوب من الجميع. رغم ذلك وبسبب التمييز "الدنيوي الفاسد" و"العالمي" يُقطع الزواج عن هدفه الإسخاتولوجي (الأخروي، أي ما

يتعلق بالملكوت) فينقل هدفه، للأسف، من ملكوت الله إلى "المجتمع"، لهذا السبب، وفي مثل هذه الحالة، يتحوّل الزواج إلى "عائق" في طريق الكمال الروحي الواحد لكلّ المسيحيين.

الزواج إن كان شكلاً جاء بعد السقوط، غير أن إعادة أصول الزواج إلى حياة الفردوس قبل السقوط يدّل على أنه كان من أجل غاية تلك الحياة، أي الكمال الروحي. الكتاب يوضح أن الله بعد أن خلق الإنسان نظر إلى آدم وقال: "لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا بِإِزَائِهِ" (تك ٢: ١٨)، وهناك أمر الله آدم وحواء: "أَكْثُرَا وانْمِيَا وَامْلأَا الأَرْضَ" (تك ١:٢٨)، أيّ أسلوب مُدخَل بعد السقوط، هو الزواج، بلا شكّ حسن وخير وهو من حكمة الله وتدبيره، وله بالنهاية هدف تربوي روحي وغايته شفاء الإنسان الساقط ومداواته، ذلك لأن كل هذه التدابير هي من "العناية الإلهية المحبة للبشر"، وتقصد بالنهاية اسختولوجيا إلى تحقيق "التدبير" الإلهي للإنسان، أي تألهه وخلاصه.

بعد السقوط غدا الزواج "أمرًا مفيدًا جدًا وضروريًا" بعد أن كان غير ضروري في البداية وقبل السقوط، كانت المحبة للآخر والتعايش المتوافق مع القريب هما الجوّ العام السائد. أمّا بعد السقوط عندما دخلت الخطيئة، فقد هوى الإنسان من علاقاته الشخصية المحبّة للآخر إلى مستوى الفرديّة والأنانية، وانطوى من الشخص إلى الفرد، هكذا كأناني انطوى على حبّ ذاته بدل حبّ الآخر. فتمزّقت روابط الوحدة وتضعضعت أواصر المحبة. عندها أسرع الرّب المحب للبشر وأدخل الشهوة (الجنس) ليحافظ على التلاحم والوحدة بين البشر، وهكذا أعاد روابط الوحدة بين الذين سبق وتفرّقوا.

فالجدّان الأولان، قبل السقوط، كانت أواصر المحبة بينهما قويّة لدرجة أنهما كانا كـ"واحد"، هكذا ظهر الله في الفردوس بحسب النص الكتابي يكلمّ الاثنين كأنه يكلمّ واحدًا، "وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ" (تك ٣:٢٢). عناية الله المُحبة أوجدت تلك الحياة المشتركة الأولى ذات أواصر محبة قوية جدًا، حتى أنه لم يكن لدى المرأة حبّ أعظم من حبها لشريكها، ولم يكن للرجل حبّ أعظم من حبّه لشريكته. ولكن عندما غلب حبّ الذات وسيطرت الأنانية صارت الشهوة

(الجنس) عاملاً إيجابيًا، لأنه يُنظر إليها كواسطة تُعيد إصلاح تلك الوحدة القديمة. هذه الوحدة يحققها الزواج بالفعل عندما يُلغى منه كلّ ما هو خاص وذاتي وأناني ولا يعد ما "لي" وما "لك". بالتالي ضمن النظرة الاسخاتولوجيّة، الشهوة هي حسنة كدواء هادف وشاف يؤول إلى رباط للمحبة وبالتالي يساعد ويقود في درب الكمال الروحي. فمن ناحية أخرى مفهوم "المثال" كلّه يتلخّص في المحبة، إن المحبة في الزواج تأتي من الطهارة. كما أن الزنى هو دليل نقص المحبة. إن المحبة الزوجية ستقود حتمًا إلى العفة في الزواج وإلى بلوغ ما تحققه البتولية.

بعد السقوط أصبح الزواج بلسمًا يداوي "ضعف الجسد" ويصير بالتالي واسطة "للعفة"، بالتالي من الواضح أن "الزواج كريم". التركيز في الزواج على المقصد الاسخاتولوجي في كل نظرة مسيحية من جهة.

بالطبع بعد السقوط، وإدخال الموت، الزواج يخدم استمرار النسل البشري. اقليمس الاسكندري وآباء كثيرون آخرون يربطون هدف الزواج بواقع الموت والإنجاب. الولادة عند بعض الآباء مثل اقليمس الاسكندري هي "خلق"، أي بالتالي هي من صورة الله التي بالإنسان. آباء مدافعون مثل ايوستينوس وأثيناغوراس يحدّدون الهدف الأول للزواج والشهوة الجسدية بالإنجاب، الذي يرونه كمُحلّ لمشكلة الموت. الإيمان بأن هدف الزواج هو إنجاب الأولاد نجده ونصادفه عند أغلب آباء اللاتين (الذين كتبوا بالغة اللاتينية وليس اليونانية) مثل أمبرسيوس وأفغوسطينوس.

لكن الأباء الشرقيون لهم في هذا الموضوع موقف مميّز ومتمايز فضلاً عن نظرتهم العميقة الاسخاتولوجيّة لكل الحياة المسيحية. عندهم غاية الزواج وهدفه الأساسي مرتبط بموضوع السقوط ليس من حيث الإنجاب والحفاظ على النسل بقدر ما هو بالحقيقة واسطة كمال خلقي ونمو روحي للبشر. فهو دواء ليس للموت وإنما للسقوط الروحي؛ لأن الإنجاب يعود لقوة الله ومشيئته بالذات ولكلمته "أكثروا وانموا". فالكتاب المقدس عينه الذي يذكر متزوجين لم ينجبوا ولم يصيروا آباء. بينما ولادات كثيرة، كما هي ولادة اسحق، تمت فقط بقوة الكلمة الإلهية وليس بقدرة الجسد. لو لم يخطئ الإنسان في الفردوس ما كان سيصعب على الله أن يُكثر البشر بأسلوب ما، وهذا ما تؤكده ولادة آدم وحواء. فلا البتولية تهدّد استمرار

الجنس البشري ولا الزواج يضمنه. فلو أنَ الخطيئة لم تدخل، كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «ما كان سيصعب على الله أن يجد الطريقة، التي كان سيتكاثر بها الجنس البشري».

أوّل ما نستخلصه إذن أن الزواج هو علاج للشفاء الروحي وواسطة للكمال والقداسة وهدفه المحبة أوّلاً والتعقل والتعفف. وإن كان الزواج كواسطة للتعقل وتجنب للزنى غير أن وصية بولس الرسول، "لاَ يَسْلُبْ أَحَدُكُمُ الآخَرَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُوافَقَةٍ، إِلَى حِينٍ، لِكَيْ تَتَفَرَّغُوا لِلصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُوا أَيْضًا مَعًا لِكَيْ لاَ يُجَرِّبَكُمُ الشَّيْطَانُ لِسَبَبِ عَدَمِ نَزَاهَتِكُمْ" (١كور ٧: ٥)، توضح أن هدف العفة هو المحبة. الاستنتاج الثاني هو أنّ الإنجاب ليس الهدف الأساسي في الزواج وإنما هو واسطة للكمال الروحي. إن الإنجاب من مطالب الزواج لكن دون أن يحتل المكانة الأولى في أهداف الزواج. هذه النظرة العميقة لا تنطلق من نظرة فلسفية فيزيولوجية للإنسان وإنما من الإيمان بأن الإنسان هو كائن سيسكن السماء، وعندها يغدو الزواج "سرًا".

موضوع العلاقات بين كلّ من الزوجين له أهمية في موضوع هدف الزواج وغايته. المثال الأول للحياة الزوجية وطبيعتها ليس إلا ذلك المُعطى من بولس الرسول، "لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ" (أف ٥:٢٣)، أي علاقة المسيح بالكنيسة. بالطبع من البديهي أن تكون هذه العلاقة ذات مفهوم اسخاتولوجي، أي أنها علاقة خلاصية، أي علاقة المحبة المخلّصة بالطاعة المخلّصة. حيث كلّ من المحبة والطاعة تصيران الواحدة هديّة وثمنًا للأخرى، ولكليهما الهدف نفسه والغاية المنشودة عينها؛ إنها بكلام آخر علاقة الجسم بالرأس. فإن كان يتوجب على المرأة الطاعة فهذا لا يعني أن حقوق الرجل أولاً هي الرئاسة والسيادة، وإنما، بالجوهر، واجبه هو المحبة. فالطاعة إذن لا تتماشى ولا تترافق مع الرئاسة وإنما مع المحبة. الرئاسة في النهاية هي مكافأة المحبة، فمن يُحمّل بالأحمال الأثقل، أي بالمحبة تُهدى له الرئاسة.

إن هذه النظرة الاسخاتولوجية (الأخروية) تعكس العثرة الاجتماعية العامة، عثرة الرسالة التي تُقرأ في العرس، "أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ

كَمَا لِلرَّبِّ، الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ" (أف ٥:٢٢و٢٣)، غير أن الثقل الملقى في هذا المقطع، ثقل الواجبات، ليس هو طاعة المرأة وإنما المحبة التي يصفها بولس ويحمّلها على عاتق الرجل، فيطلب من الرجل محبة كمحبة المسيح لكنيسته، "أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا" (أف ٥:٢٥)؛ أي أن يعتني، أن يحبّ، أن يهتم وأن يضحي بنفسه من أجل امرأته. هذه المحبة يمكن أن نفهمها كتصوّر في الفضيلة.

بكلام آخر، إن طاعة المرأة تزيد من محبة رجلها لها وتجعل تضحيته، هذه التي يصفها بولس، ممكنة. أو بشكل عكسي إن محبة الرجل، هذه السابق وصفها، تجعل طاعة المرأة خفيفة وجميلة. فالطاعة هي الدواء اللازم لمنع الرّياء الذي يمكن أن يهدّد محبة الرجل هذه. أمّا المحبة فهي المضاد الذي يمنع التسلط الذي يمكن أن يهدّد الطاعة. لأنه كما أن أخلاقياتنا المسيحية يُعبّر عنها اسخاتولوجيًا، كذلك طاعة المرأة لرجلها وطاعة الرجل لله ومحبة الرجل لإمرأته؛ فإن وحدة الزوجين تتم بوساطة المحبة في الطاعة وبالطاعة في المحبة.

واعترافًا برئاسة الرجل بأنها العناية، وبالمحبة المخلصة، يعرض بولس الرسول أن تنعكس الرئاسة إذا انعكست أسبابها وامتيازاتها. بما أن الطاعة دخلت بعد السقوط وبعد اضطراب العلاقة بين الزوجين وبعد تزعزع أواصر المحبة ودخول الخطيئة ولم تكن منذ البداية، إذن له هدف اسخاتولوجي.

إضافة إلى ذلك أنه بعد السقوط، وبعد غياب المحبة الكافية، صار التساوي سببًا للاختلاف والتعارك، لهذا أُدخلت الطاعة اسخاتولوجيًا. جوهريًا، أن الرئاسة لا ترتبط بالجنس المحدّد أي بالرجل، ولكن بذلك الذي لا يضل ويطيع الله ويحفظ الإيمان، بينما العبودية كدواء جاءت بعد السقوط، فإنه من الممكن أن تخلّص المرأة الرجل كما يذكر بولس ذاته، بقوله: "لأَنَّهُ كَيْفَ تَعْلَمِينَ أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، هَلْ تُخَلِّصِينَ الرَّجُلَ. أَوْ كَيْفَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، هَلْ تُخَلِّصُ الْمَرْأَةَ" (١كو ٧:١٦)، أي يتبادل هنا الجنسان الرئاسة.

لهذا إن زنى الرجل المتزوج يدان أكثر من زنى غير المتزوج ويُدعى فجورًا؛ لأن هذا الأمر لا يشكل فقط تدنيسًا للجسد، وإنما استغلالاً لجسد لا نملكه وإنما هو ملك للآخر أي بشكل آخر سرقة واقتناص واختلاس. هذا الفجور هو أبشع من الزنى العادي لأنه لا يلغي فقط العفة وإنما أيضًا يقتل المحبة. إذ أن شرط وجود المحبة هو تقديم الطاعة والعكس بالعكس، شرط تقديم الطاعة تواجد المحبة. هذا لا يعني أنه في حال غياب أحد الشرطين أن تتزعزع العلاقة وتنفك الروابط؛ لأن كلا المحبة والطاعة يرتبطان اسخاتولوجيًا، ليس فقط بالعلاقة المتبادلة بين الزوجين وغير الأكيدة بشكل عام، إنما بالعلاقة اسخاتولوجيًا مع الله والأكيدة دائمًا. هكذا في حال اضطراب هذه العلاقة المتبادلة يُنصح أن تُقَدم المحبة أو الطاعة من الطرفين لله. هذه النظرة العميقة اسخاتولوجية، وهي لا تشرح لنا فقط معنى الرئاسة والطاعة، وإنما أيضًا تربط كليهما برابط أقوى من الروابط الاجتماعية ضمن الأطر الحياتية الحقوقية والواجبية، برابط هو بالرّب.

إن الفكر الكتابي هو حلّ عملي وفعلي للمشاكل العصرية حول حقوق وواجبات كل من الزوجين وكل المشاكل الراهنة الاجتماعية بما يختص بحقوق المرأة وعلاقة الجنسين.

ليس حالة نادرة حين نرى نساء سبقن الرجال في البساطة وشدّة الإيمان وشجاعة التقوى والمحبة الخالصة نحو المسيح. فنساء كثيرات كنّ صابرات في الجهاد الروحي والفضائل الكتابية والمسيحية، منهن: سارة ورفقة وراحيل وسيفورة وحنة اللواتي صرن بإيمانهن وفضائلهن معلمات فعلاً للرجال. وبولس الرسول ذاته يعرف هذه الحالات ويعترف بها، وذلك عندما يذكر بريسكلا قبل رجلها أكيلا (أع ١٨:١٨)، وذلك لتقدّمها عليه بالتقوى والفضيلة.

إذن النساء متساويات فعلاً، ويمتلكن نفس القوى من الناحية الأخلاقية، ويستطعن على وجه السواء أن يسابقن الرجال في التضحية والتكريس للجهادات الروحية وأن ينجحن بذلك.

إن الضعف الجسدي بمقارنة المرأة بالرجل، هو امتيازات طبيعية جسدية لا قيمة للفرق بها اسخاتولوجيًا أو أخلاقيًا. وهذه الامتيازات التي يعطيها العالمَ المعلمن أهمية، هي بالواقع لا أهمية لها. فالقوة الجسدية حين

توجد أو حين تغيب لا تزيد الإنسان كرامة ولا تنقصه منها. فعندما يجري الكلام عند آبائنا القديسين يجري الكلام بالأخص على طباع نسائية وعلى رجولة. وهذه الطباع ذات المعنى الأخلاقي تأتي من التربية وليس من الطبيعة. لهذا استطاع بولس أن يقول: "لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى" (غلا ٣:٢٨). لهذا يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «فلا الطبيعة ولا الضعف الجسدي يمنعان التقوى أو التقدّم بسرعة في طريق الكمال». فالمطلوب إذن أن نطرح عنا الطباع النسائية لتشتعل فينا الرغبة والهمّة، اليقظة والرجولة.

وعندما نفسّر القوة بالرجولة عندها تسقط التميزيات العالمية التي بحسبها تصير المرأة أدنى من الرجل. لكن الواقع أن هذا الطبع النسائي سمّي هكذا؛ لأن الناس يربونه بالعموم في بناتهم، ونلاحظ أن هذه الاهتمامات المعاكسة للرجولة بشكل عام عند النساء. لكن هذا كما لا يعود إلى طبيعتهنّ ودليل ذلك أن مثل هذه التمييزات تلغى في الكنيسة؛ لأن التربية هنا تختلف عن التربية العالمية. هذا الطبع هو طبع يختص بالنفس وليس بالجسد.

في الختام فإن القديس بولس الرسول يعطي للزواج درجة سامية جدًا حين يربطه مع علاقة المسيح بالكنيسة. والزواج في الكنيسة لا يعني أبدًا مباركة ما هو طبيعي، لكن يعني إطلاق هذه الوحدة الجدّيدة في درب الملكوت.

إن سر الزواج كغيره من الأسرار لا يعمل في الإنسان بشكل عفوي، وإنما يشترط قبوله المعبَّر عنه بمساهمته في طلب نعمة السر. سرّ الزواج يشدد على وجه الشهادة. الدورة حول المائدة وترانيمة «أيها الشهداء القديسون... » كلها موازية لما يتم بسرّ الكهنوت، والرابط بين السرّين هو سرّ المحبة كشهادة. المحب دائمًا شهيد، المحبة دائمًا تربح. إن وضع الإكليل يؤكد عن نظرة الكنيسة للعروسين كشهيدَيّن تكللهما. إن ذكر "الشهداء الأربعين" يؤكد أيضًا على درب المحبة والشهادة فيها.

الـخاتـمة

نتائج سر الزيجة المقدسة

في سر الزيجة يَعِد العروسان أحدهما الآخر أمام الله والكنيسة بالمحبة والأمانة ويأخذان مواهب الروح القدس الضرورية لإتمام واجباتهما الجديدة العائلية. فتذكار هذا الوعد يعلمهما دائمًا كيف ينبغي أن يتصرف أحدهما مع الآخر وكلاهما مع أولادهما الذين منحهم الله لهما.

سِـرُّ الـكهـنـوت

الباب الأول

إرتباط هذا السر مع ما سبقه، معناه، تعريفه، وأسمائه

١- علاقة سر الكهنوت مع ما سبقه من أسرار

إن كل سر من الأسرار السابق ذكرها يقام للمؤمنين من رعاة الكنيسة وحدهم وهم الأساقفة والكهنة، ولكن لكي يصير البشر رعاة في الكنيسة المسيحية وينالوا حقوقًا في تتميم الأسرار المقدسة أقام الرب سر الكهنوت. فالزيجة تمنح المؤمن نعمة ولادة الأولاد بحسب الناموس الطبيعي المرتب من الله، أما الكهنوت فيمنح المؤمن نعمة لإعادة ولادة أبناء الكنيسة على وجه يعلو عن الطبيعة وتربيتهم للحياة الأبدية.

٢- أسماء سر الكهنوت

يُسمى هذا السر "شرطونية" أي "وضع اليد"، و"شرطونية سرية"، و"ترقية إلى الكهنوت"، و"بركة الكهنوت"، و"سرًا أسقفيًا".

٣- تعريف سر الكهنوت

إن الكهنوت من حيث هو يُعرف بأنه عمل مقدس به يضع الأسقف يديه على رأس الشخص المنتخب للخدم الكنائسية ويطلب من أجله فتنسكب عليه النعمة الإلهية التي تقدسه وترفعه إلى إحدى درجات الكهنوت الكنائسي وتساعده على اتمام واجباته الكهنوتية.

٤- معنى سر الكهنوت

الكهنوت يُفهم على معنيين، <u>الأول</u>: إنه رتبة ممتازة مختصة بأفراد معلومين، أو وظيفة وخدمة خصوصية في الكنيسة معروفة باسم "رئاسة

الكهنوت". والثاني: إنه طقس وترتيب خصوصي عليه يُقدَّس ويُشرطَن الأشخاص اللائقون لهذه الخدمة الخصوصية.

الباب الثاني

الفصل الأول

تأسيس سر الكهنوت، غاية يسوع المسيح من تأسيس السر بحسب الإنجيل والآباء

١- تأسيس السر

إن الرب يسوع المسيح قد أقام هو نفسه في كنيسته جماعة خصوصية للكهنوت، ووشح الرجال الذين تتألف منهم هذه الجماعة ومنحهم قوة عمل الوسائط الممنوحة منه للكنيسة لتحصل على الغاية المطلوبة، بمعنى أنه أقامهم فيها معلمين وخدامًا وآباء روحيين ولم يسمح بهذه الوظائف لأحد من سائر المؤمنين وغيرهم بل بالعكس إذ أمر الرعية أن تخضع لرعاتها. وهذا يتأكد من الإنجيل المقدس المتضمِن تاريخ حياة مخلصنا يسوع المسيح وأعماله يُرى،

أولاً: أن الرب قد اختار هو نفسه من بين جميع تلاميذه اختار اثني عشر تلميذًا معروفين بأسمائهم وسماهم "رسلاً". وقد قال في ذلك القديس لوقا الإنجيلي: "وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ دَعَا تَلاَمِيذَهُ، وَاخْتَارَ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِينَ سَمَّاهُمْ أَيْضًا رُسُلاً" (لو ٦:١٣). ثم قال لهم: "لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ" (يو ١٥:١٦). كما وعدهم بإرسال الروح القدس عليهم كي يرشدهم ويُذكرهم بكل ما قاله لهم، بقوله لهم: "وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ" (يو ١٤:٢٦). كما أن شاول (بولس الرسول) أُختير من الرب نفسه كما ذُكر في أعمال الرسل: "فَقَالَ لَهُ (لحنانيا) الرَّبُّ: اذْهَبْ لأَنَّ هذَا (شاول الطرطوسي) لِي إِنَاءٌ مُخْتَارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي أَمَامَ أُمَمٍ وَمُلُوكٍ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ... فَمَضَى حَنَانِيَّا وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَيْهِ" (أع ٩:١٥-١٧). وكذلك

برنابا وشاول أُفرزا بصوت الروح القدس، كما ذُكر كذلك في أعمال الرسل: "وَكَانَ فِي أَنْطَاكِيَةَ فِي الْكَنِيسَةِ هُنَاكَ أَنْبِيَاءُ وَمُعَلِّمُونَ... وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ" (أع ١٣: ١و٢).

ثانيًا: أنه أعطاهم هم وحدهم الحقوق والقوة في تعليم جميع الشعوب وتتميم الأسرار المقدسة وإرشاد المؤمنين إلى الخلاص، حيث قال لهم: "فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨: ١٩)، وكذلك قال لهم: "وَأَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هذَا هُوَ جَسَدِي... اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي" (لو ٢٢: ١٩)، وأيضًا بقوله لهم: "كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ" (مت ١٨: ١٨). كما أن الرب يسوع المسيح بعد قيامته من الأموات "أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينَ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ" (أع ١: ٣).

ثالثًا: أنه أعطى هذه القوة للرسل القديسين كما اخذها من الآب، إذ قال لهم: "دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت ٢٨: ١٨و١٩). كما قال لهم: "كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا. وَلَمَّا قَالَ هذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ" (يو ٢٠: ٢١و٢٢).

رابعًا: أنه قد أضاف هو نفسه إلى الاثني عشر تلميذًا سبعين آخرين وأرسلهم جميعًا إلى هذا العمل العظيم، كما يذكر في ذلك القديس لوقا الإنجيلي بقوله: "وَبَعْدَ ذلِكَ عَيَّنَ الرَّبُّ سَبْعِينَ آخَرِينَ أَيْضًا، وَأَرْسَلَهُمُ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى كُلِّ مَدِينَةٍ وَمَوْضِعٍ حَيْثُ كَانَ هُوَ مُزْمِعًا أَنْ يَأْتِيَ. فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْحَصَادَ كَثِيرٌ، وَلكِنَّ الْفَعَلَةَ قَلِيلُونَ. فَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعَلَةً إِلَى حَصَادِهِ" (لو ١٠: ١و٢).

خامسًا: عندما سلَّم الرب رسله الاثني عشر هذه الرسالة السماوية قصد أن تنتقل منهم إلى خلفائهم ومن خلفائهم إلى الذين بعدهم وأن تُحفظ بهذا الانتقال من جيل إلى جيل في العالم إلى انتهائه. فبعد أن قال لرسله: "اذْهَبُوا

إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا" (مر ١٦:١٥)، قال لهم: "وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت ٢٨:٢٠). فمن قول الرب: "إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ"، ينتج أنه أرسل بشخص الرسل جميع خلفائهم الآتين بعدهم إلى عمل رسالتهم وأكد لهم حضوره معهم كل الأيام، وأقام هو نفسه في الكنيسة وضعية ثابتة كل الأيام وإلى منتهى الدهر لا رسلاً وأنبياء ومبشرين فقط بل رعاة ومعلمين أيضًا (أف ٤:١١).

سادسًا: بعد أن وشح الرب تلاميذه بهذه القوة الإلهية أمر أمرًا صريحًا واجب الطاعة أن يقبل جميع المسيحيين تعاليم الرسل التي يعلمونها والأسرار التي يقيمونها وأن يكونوا خاضعين لصوت الرسل خضوع الرعية للراعي وربط أمره هذا بتهديدات مخيفة ضد كل من يعصاه، بقوله لتلاميذه: "اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (لو ١٠:١٦)، كما قال لتلاميذه: "إِذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ" (مر ١٦:١٥و١٦)، وأيضًا قال لهم: "وَمَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ وَلاَ يَسْمَعُ كَلاَمَكُمْ فَاخْرُجُوا خَارِجًا مِنْ ذلِكَ الْبَيْتِ أَوْ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا غُبَارَ أَرْجُلِكُمْ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ الدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً مِمَّا لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ" (مت ١٠:١٤و١٥).

٢- غاية يسوع المسيح من تأسيس السر كما يوضحها الإنجيل

<u>أولاً</u>: إن غاية مخلصنا من تأسيسه سر الكهنوت تظهر بأكثر وضوح من عمل الرسل القديسين الذين كانوا منقادين في أعمالهم من الروح القدس حيث،

١- أنهم حفظوا لأنفسهم دائمًا الحقوق الرعائية التي ورثوها من يسوع المسيح. فبعد صعود ربنا يسوع المسيح إلى السماء قام بطرس في وسط التلاميذ وكان عدة أسماء معًا نحو مئة وعشرين وانتُخِبوا متياس الرسول بدلاً من يهوذا الإسخريوطي، مُسلِم الرب الذي سقط من هذه الرتبة، لإتمام العدد اثنى عشر رسول الذي اختاره ربهم مخلصهم، لا بحسب استحسان المؤمنين بل بإلهام الرب فقط، كما ذُكر في أعمال الرسل: "فَأَقَامُوا اثْنَيْنِ، يُوسُفَ الَّذِي يُدْعَى بَارْسَابَا الْمُلَقَّبَ يُوسْتُسَ، وَمَتَّيَاسَ. وَصَلَّوْا قَائِلِينَ: أَيُّهَا

الرَّبُّ الْعَارِفُ قُلُوبَ الْجَمِيعِ، عَيِّنْ أَنْتَ مِنْ هذَيْنِ الاثْنَيْنِ أَيًّا اخْتَرْتَهُ، لِيَأْخُذَ قُرْعَةَ هذِهِ الْخِدْمَةِ وَالرِّسَالَةِ الَّتِي تَعَدَّاهَا يَهُوذَا لِيَذْهَبَ إِلَى مَكَانِهِ. ثُمَّ أَلْقَوْا قُرْعَتَهُمْ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى مَتِّيَاسَ، فَحُسِبَ مَعَ الأَحَدَ عَشَرَ رَسُولاً" (أع ١:٢٣-٢٦)، وانتخابهم سبعة شمامسة للخدمة (أع ٦:١-٦). لأنه كما يقول بولس: "هكَذَا فَلْيَحْسِبْنَا الإِنْسَانُ كَخُدَّامِ الْمَسِيحِ، وَوُكَلاَءِ سَرَائِرِ اللهِ" (١كو ٤:١). كما تمموا دائمًا الواجبات المناطة بهم من ربهم، "وَكَانُوا لاَ يَزَالُونَ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْهَيْكَلِ وَفِي الْبُيُوتِ مُعَلِّمِينَ وَمُبَشِّرِينَ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (أع ٥:٤٢)، "لأَنَّهُ إِنْ كُنْتُ (أنا بولس) أُبَشِّرُ فَلَيْسَ لِي فَخْرٌ، إِذِ الضَّرُورَةُ مَوْضُوعَةٌ عَلَيَّ، فَوَيْلٌ لِي إِنْ كُنْتُ لاَ أُبَشِّرُ" (١كو ٩:١٦). كما كانوا يحكمون على الخطأة باسم يسوع المسيح، كما بولس الذي يقول: "بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ إِذْ أَنْتُمْ وَرُوحِي مُجْتَمِعُونَ مَعَ قُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ يُسَلَّمَ مِثْلُ هذَا لِلشَّيْطَانِ لِهَلاَكِ الْجَسَدِ، لِكَيْ تَخْلُصَ الرُّوحُ فِي يَوْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (١كو ٤:٤و٥). ذلك رغم المساعي الكثيرة التي كان مقاوموهم يطلبون بها أن يحرموهم هذا الحق الذي نالوه من الله، كما قال بطرس ويوحنا لمقاوميهم من اليهود: "إِنْ كَانَ حَقًّا أَمَامَ اللهِ أَنْ نَسْمَعَ لَكُمْ أَكْثَرَ مِنَ اللهِ، فَاحْكُمُوا. لأَنَّنَا نَحْنُ لاَ يُمْكِنُنَا أَنْ لاَ نَتَكَلَّمَ بِمَا رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا" (أع ٤:١٩و٢٠)، وقول بطرس والرسل لرئيس كهنة اليهود عندما طلب منهم عدم التعليم باسم يسوع: "يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ اللهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ" (أع ٥:٢٩).

٢- أنهم عندما كانوا يبشرون بالإنجيل ويؤسسون في أماكن كثيرة كنائس عديدة كانوا يقيمون فيها كهنة كما كانت تدعو الضرورة، كما فعل بولس وبرنابا في أيقونِيَة بأن "انْتَخَبَا لَهُمْ قُسُوسًا فِي كُلِّ كَنِيسَةٍ" (أع ١٤:٢٣). وكانوا يوصوهم بالرعية التي أقيموا عليها، كقول بولس الرسول لقسوس كنيسة ميليتس وأفسس: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨).

وكانوا يمنحوا بسر وضع اليد المقدس القوة الإلهية عينها التي أخذوها من يسوع المسيح للأشخاص الذين أقاموهم نوابًا وخلفاء لهم، من بولس "إِلَى تِيطُسَ، الابْنِ الصَّرِيحِ حَسَبَ الإِيمَانِ الْمُشْتَرَكِ: نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ الآبِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مُخَلِّصِنَا. مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ

لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥) وكذلك قوله: "أَنَا غَرَسْتُ وَأَبُلُّوسُ سَقَى، لكِنَّ اللهَ كَانَ يُنْمِي" (١كو ٣:٦). ونقلوها لهم مثبتين أنهم قد أقيموا في الكنيسة من الروح القدس نفسه، كما يقول بولس الرسول لقسوس كنيسة ميليتس وأفسس: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ" (أع ٢٠:٢٨).

وقد خصوا هؤلاء الخلافاء وحدهم دون غيرهم بالحقوق الرسولية:

أولاً: في تعليم المؤمنين. كما يوصي بولس الرسول تلميذه تيموثاوس بقوله له: "عَلِّمْ وَعِظْ" (١تي٦:٢)، "وَمَا سَمِعْتَهُ مِنِّي بِشُهُودٍ كَثِيرِينَ، أَوْدِعْهُ أُنَاسًا أُمَنَاءَ، يَكُونُونَ أَكْفَاءً أَنْ يُعَلِّمُوا آخَرِينَ أَيْضًا" (٢تي ٢:٢)، "اكْرِزْ بِالْكَلِمَةِ. اعْكُفْ عَلَى ذلِكَ فِي وَقْتٍ مُنَاسِبٍ وَغَيْرِ مُنَاسِبٍ. وَبِّخ، انْتَهِرْ، عِظْ بِكُلِّ أَنَاةٍ وَتَعْلِيمٍ" (٢تي ٤:٢). وكذلك لتلميذه تيطس بقوله له: "وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكَلَّمْ بِمَا يَلِيقُ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ" (تي ٢:١)، "تَكَلَّمْ بِهذِهِ، وَعِظْ، وَوَبِّخْ بِكُلِّ سُلْطَانٍ. لاَ يَسْتَهِنْ بِكَ أَحَدٌ" (تي ٢:١٥).

ثانيًا: في إقامة الخِدَم الإلهية. كما يقول بولس الرسول: "فَأَطْلُبُ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْ تُقَامَ طَلِبَاتٌ وَصَلَوَاتٌ وَابْتِهَالاَتٌ وَتَشَكُّرَاتٌ لأَجْلِ جَمِيعِ النَّاسِ، لأَجْلِ الْمُلُوكِ وَجَمِيعِ الَّذِينَ هُمْ فِي مَنْصِبٍ، لِكَيْ نَقْضِيَ حَيَاةً مُطْمَئِنَّةً هَادِئَةً فِي كُلِّ تَقْوَى وَوَقَارٍ، لأَنَّ هذَا حَسَنٌ وَمَقْبُولٌ لَدَى مُخَلِّصِنَا اللهِ" (١تي ٢:١-٣).

ثالثًا: في رعاية قطيع يسوع المسيح. كما قول بولس الرسول لقسوس كنيسة ميليتس وأفسس: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨). وكما قول بطرس الرسول إلى الشيوخ: "ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ نُظَّارًا، لاَ عَنِ اضْطِرَارٍ بَلْ بِالاخْتِيَارِ، وَلاَ لِرِبْحٍ قَبِيحٍ بَلْ بِنَشَاطٍ، وَلاَ كَمَنْ يَسُودُ عَلَى الأَنْصِبَةِ، بَلْ صَائِرِينَ أَمْثِلَةً لِلرَّعِيَّةِ" (١بط ٥:٢).

٣- أنهم أوصوا الأساقفة الذين انتخبوهم وساموهم بأيديهم أن يمنحوا بسر الشرطونية المقدسة القوة الإلهية التي نالوها إلى أناس آخرين مختارون من ذوي السلوك المُتَسِّم بالأدب والاستعداد للقيام بخدمة سامية مثل هذه، كما يقول بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس: "وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكَلَّمْ بِمَا

يَلِيقُ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ، أَنْ يَكُونَ الأَشْيَاخُ صَاحِينَ، ذَوِي وَقَارٍ، مُتَعَقِّلِينَ، أَصِحَّاءَ فِي الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالصَّبْرِ" (١تي ٢:١و٢).

كما بينوا بالتدقيق الأوصاف الخاصة التي يجب أن يتميز بها المدعوين إلى هذه الرتبة الهامة، والتي أوضحها بولس الرسول بقوله: "فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الأُسْقُفُ بِلاَ لَوْمٍ، بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، صَاحِيًا، عَاقِلاً، مُحْتَشِمًا، مُضِيفًا لِلْغُرَبَاءِ، صَالِحًا لِلتَّعْلِيمِ... وَيَجِبُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ، لِئَلاَّ يَسْقُطَ فِي تَعْيِيرٍ وَفَخِّ إِبْلِيسَ. كَذلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّمَامِسَةُ ذَوِي وَقَارٍ، لاَ ذَوِي لِسَانَيْنِ، غَيْرَ مُولَعِينَ بِالْخَمْرِ الْكَثِيرِ، وَلاَ طَامِعِينَ بِالرِّبْحِ الْقَبِيحِ، وَلَهُمْ سِرُّ الإِيمَانِ بِضَمِيرٍ طَاهِرٍ" (١تي ٣:٢-٩). وكما يقول أيضًا:"إِلَى تِيطُسَ، الابْنِ الصَّرِيحِ حَسَبَ الإِيمَانِ الْمُشْتَرَكِ: نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ الآبِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مُخَلِّصِنَا. مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ بِلاَ لَوْمٍ، بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، لَهُ أَوْلاَدٌ مُؤْمِنُونَ، لَيْسُوا فِي شِكَايَةِ الْخَلاَعَةِ وَلاَ مُتَمَرِّدِينَ. لأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الأُسْقُفُ بِلاَ لَوْمٍ كَوَكِيلِ اللهِ، غَيْرَ مُعْجِبٍ بِنَفْسِهِ، وَلاَ غَضُوبٍ، وَلاَ مُدْمِنِ الْخَمْرِ، وَلاَ ضَرَّابٍ، وَلاَ طَامِعٍ فِي الرِّبْحِ الْقَبِيحِ، بَلْ مُضِيفًا لِلْغُرَبَاءِ، مُحِبًّا لِلْخَيْرِ، مُتَعَقِّلاً، بَارًّا، وَرِعًا، ضَابِطًا لِنَفْسِهِ، مُلاَزِمًا لِلْكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي بِحَسَبِ التَّعْلِيمِ، لِكَيْ يَكُونَ قَادِرًا أَنْ يَعِظَ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ وَيُوَبِّخَ الْمُنَاقِضِينَ" (تي ١:٤-٩)، "أَنْ يَكُونَ الأَشْيَاخُ صَاحِينَ، ذَوِي وَقَارٍ، مُتَعَقِّلِينَ، أَصِحَّاءَ فِي الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالصَّبْرِ" (تي ٢:٢).

ووضعوا قوانين خصوصية لمحاكمتهم، كما يقول بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس: "لاَ تَقْبَلْ شِكَايَةً عَلَى شَيْخٍ إِلاَّ عَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ" (١تي ٥:١٩). وأمروا بالمكافئة للكهنة الذين يحسنون التدبير في وظائفهم، كما يقول بولس الرسول أيضًا لتلميذه تيموثاوس: "أَمَّا الشُّيُوخُ الْمُدَبِّرُونَ حَسَنًا فَلْيُحْسَبُوا أَهْلاً لِكَرَامَةٍ مُضَاعَفَةٍ، وَلاَ سِيَّمَا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ فِي الْكَلِمَةِ وَالتَّعْلِيمِ" (١تي ٥:١٧).

ثانيًا: كما أن غاية مخلصنا يسوع المسيح من تأسيسه سر الكهنوت قد بينها الرسل القديسون بأعمالهم بتصرف آخر منهم،

١- أنهم منعوا بقوة جميع الذين لم يدعو للخدمة الإلهية منعًا صارمًا من إغتصابها. كما يقول بولس الرسول متسائلاً: "فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ؟ وَكَيْفَ يَكْرِزُونَ إِنْ لَمْ يُرْسَلُوا؟" (رو ١٠:١٤و١٥)، وقد أجاب هو نفسه على تسائله هذا بقوله: "وَلاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ هذِهِ الْوَظِيفَةَ بِنَفْسِهِ، بَلِ الْمَدْعُوُّ مِنَ اللهِ، كَمَا هَارُونُ أَيْضًا. كَذلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضًا لَمْ يُمَجِّدْ نَفْسَهُ لِيَصِيرَ رَئِيسَ كَهَنَةٍ، بَلِ الَّذِي قَالَ لَهُ: أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ" (عب ٥:٤و٥).

٢- أنهم وجهوا النصائح للمؤمنين عمومًا "أَطِيعُوا مُرْشِدِيكُمْ وَاخْضَعُوا، لأَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ لأَجْلِ نُفُوسِكُمْ" (عب ١٣:١٧)، "أَنْ تَعْرِفُوا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ بَيْنَكُمْ وَيُدَبِّرُونَكُمْ فِي الرَّبِّ وَيُنْذِرُونَكُمْ، وَأَنْ تَعْتَبِرُوهُمْ كَثِيرًا جِدًّا فِي الْمَحَبَّةِ مِنْ أَجْلِ عَمَلِهِمْ. سَالِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا" (١تس ٥:١٢و١٣).

٣- غاية يسوع المسيح من تأسيس السر كما يوضحها الآباء

أولاً: من أقوال تلاميذ الرسل أنفسهم ومن الذين بعدهم الذين كانوا يَعلمون تعليم معلميهم الرسل حق المعرفة. ومنهم:

القديس إريناوس الذي يقول: «يجب الخضوع للكهنة الذين أقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل وأخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الأسقفية. وأما الباقون الذين لم يأخذوا الكهنوت بخلافة رسولية وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيثما اتفق فيجب أن نحسبهم أناسًا مشبوهين وهراطقة وأردياء وعصاة متعجرفين ومتكبرين ومرائين، وأنهم لا يتعاطون ذلك إلا محبة بالربح والمجد الفارغ» (ضد الهراطقة ٤). كما يقول مثل هذا القول كل من: القديس كبريانوس (رسالة ٢٥و٢٧)، القديس أوسابيوس (في تاريخ الكنيسة ٤:٣)، القديس غريغوريوس الثاولوغس (جزء ٣ صفحة ١٤٣)، القديس يوحنا الذهبي الفم (رسالة على ٢تي مقالة ٢)، القديس أمبروسيوس (واجبات الخدام ٢)، القديس إيرونيموس (ضد لوكيفرمراس ٤)، والمغبوط أوغسطينوس (ضد رسالة بارمينيان ١) وغيرهم.

ثانيًا: من الرعاة الذين كانوا يؤلفون هذه الرتبة الخاصة وكانوا ينسبون القوة الممنوحة لهم إلى يسوع المسيح نفسه وأنهم لهذا سُموا خلفاء الرسل، وكانوا يَشْخصون المخلص نفسه في الكنيسة. ومن هؤلاء:

القديس إكليموندس اسقف رومية الذي يقول: «إذ قد أخذ الرسل معرفة كاملة بما سيكون بعدهم أقاموا الذين سبق ذكرهم (الأساقفة والشمامسة) وبالوقت نفسه حددوا أمر الخلافة حتى كلما رقد أحد منهم يخلفه في الخدمة رجال آخرون مختبرون» (رسالة ١).

والقديس أغناطيوس المتوشح بالله الذي يقول: «إن الأساقفة قد أُقيموا في جميع أماكن الأرض بحسب مشيئة يسوع المسيح» (رسالة لأفسس ٣).

القديس إريناوس الذي يقول: «إنه يمكنا أن نذكر الذين أقامهم الرسل أساقفة في الكنائس وخلفاءهم أيضًا بأسمائهم إلى أيامنا الذين لم يعلموا شيئًا البتة ولم يروا شيئًا مما يتصوره الهراطقة. لأنه إذ عرف الرسل الأسرار المكتومة كانوا يُظهرونها للكاملين وحدهم دون جميع الآخرين. فبحق أقوى إذًا قد باحوا بها وسلموها للرجال الذين ائتمنوهم على الكنائس نفسها إذ كانوا يرغبون أن يكون خلفاؤهم المقامون في رتبتهم الخاصة كاملين في التعليم وبلا لوم من كل الأوجه» (ضد الهراطقة ٣).

والقديس كبريانوس الذي يقول: «نحن خلفاء الرسل ومدبروا كنيسة الله بقوتهم عينها» (أعمال مجمع قرطاجنة). والذي يقول أيضًا: «إن سلطان حل الخطأة أُعطي للرسل وللكنائس التي هم أسسوها إذ أُرسلوا من الله وللأساقفة الذين خلفوهم بحسب ترتيب الإنابة» (رسالة ٢٥).

والقديس أمبروسيوس الذي يقول: «إن الأسقف يُشَخص يسوع المسيح وهو نائب الرب» (شرح الرسالة الأولى إلى كورنثوس).

والقديس إيرونيموس الذي يقول: «إن الأساقفة يقومون مقام الرسل» (رسالة ٢٧ إلى ماركلوس).

الفصل الثاني

العلاقة بين القائمين على السر
وبين الرعية، وكمال الكنيسة

١- القسمان المؤلف منهما الكنيسة والعلاقة بينهما

إن كنيسة يسوع المسيح مؤلفة من قسمين،

القسم الأول: الرعاة. وهؤلاء يجب عليهم أن يُعلموا رعيتهم، كما يبيِّن بولس الرسول بقوله لتلميذه تيموثاوس: "عَلِّمْ وَعِظْ" (١تي٦:٢)، و"عِظْ بِكُلِّ أَنَاةٍ وَتَعْلِيمٍ" (٢تي ٤:٢). وكذلك بقوله لتلميذه تيطس: "وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكَلَّمْ بِمَا يَلِيقُ بِالتَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ" (تي ١:٢)، "تَكَلَّمْ بِهذِهِ، وَعِظْ" (تي ١٥:٢). ويقيموا الخدم الإلهية، كما يبيِّن بولس الرسول بقوله: "وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ الْعَالَمِ، بَلِ الرُّوحَ الَّذِي مِنَ اللهِ، لِنَعْرِفَ الأَشْيَاءَ الْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ اللهِ، الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَيْضًا، لاَ بِأَقْوَالٍ تُعَلِّمُهَا حِكْمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، بَلْ بِمَا يُعَلِّمُهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ، قَارِنِينَ الرُّوحِيَّاتِ بِالرُّوحِيَّاتِ" (١كو ١٢:٢و١٣)، وكذلك بقوله لتلميذه تيموثاوس: "فَأَطْلُبُ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْ تُقَامَ طَلِبَاتٌ وَصَلَوَاتٌ وَابْتِهَالاَتٌ وَتَشَكُّرَاتٌ لأَجْلِ جَمِيعِ النَّاسِ، لأَجْلِ الْمُلُوكِ وَجَمِيعِ الَّذِينَ هُمْ فِي مَنْصِبٍ، لِكَيْ نَقْضِيَ حَيَاةً مُطْمَئِنَّةً هَادِئَةً فِي كُلِّ تَقْوَى وَوَقَارٍ، لأَنَّ هذَا حَسَنٌ وَمَقْبُولٌ لَدَى مُخَلِّصِنَا اللهِ" (١تي ١:٢-٣). ويتدبروا أمورهم الروحية كما يقول بولس الرسول لقسوس كنيسة ميليتس وأفسس: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٨:٢٠).

والقسم الثاني: الرعية. وهؤلاء عليهم أن يمتثلوا تعاليم رعاتهم خلفاء رسله الذين قال لهم يسوع المسيح: "اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي

يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (لو ١٠:١٦). وأن يتباركوا ويتقدسوا منهم بالبركة التي نالوها بالكهنوت عن طريق التسلسل الرسولي من رسل الرب الذين قال لهم ومنهم لخلفائهم الذين بعدهم: "مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (مت ١٠:٤٠). وأن يخضعوا لرئاستهم الروحية، كما يقول بولس الرسول: "أَطِيعُوا مُرْشِدِيكُمْ وَاخْضَعُوا، لأَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ لأَجْلِ نُفُوسِكُمْ" (عب ١٣:١٧).

على ذلك لا يجب انتقاء آيات من الكتاب المقدس لتأكيد فكر معين، فمثلاً في الإنجيل المقدس أحيانًا اسم الكنيسة يشير إلى الرعية فقط دون الرعاة حيث يُسمى الرعاة "أمناء على الكنيسة" والذي يعني الشعب وحده، كما في قول بولس الرسول: "وَإِنَّمَا إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَعْرِفُ أَنْ يُدَبِّرَ بَيْتَهُ، فَكَيْفَ يَعْتَنِي بِكَنِيسَةِ اللهِ؟" (١تي ٣:٥). وأحيانًا أخرى اسم الكنيسة يشير إلى الرعاة وحدهم دون الرعية، كما في قول المخلص: "وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَاذْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا. إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ، فَخُذْ مَعَكَ أَيْضًا وَاحِدًا أَوِ اثْنَيْنِ، لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَثَنِيِّ وَالْعَشَّارِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ" (مت ١٨:١٥-١٨)، فقول المخلص هنا: "كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ... الخ" يشير إلى أنه عنى بالكنيسة الأشخاص المُعطى لهم سلطان الحل والربط أي الرعاة. بل يجب أخذ الآيات في سياق الإنجيل ككل الذي كُتب فيه.

٢- معنى كمال الكنيسة

إن تخصيص اسم الكنيسة تارة بالرعاة وحدهم وتارة بالرعية وحدها لا يفيد المعنى الكامل الذي يدل عليه الاسم، وإنما كمال معنى اسم الكنيسة يقوم بدلالته على الرعاة والرعية معًا وحينئذٍ يشمل الكنيسة ذات السلطان الكهنوتي أي الرعاة والكنيسة المرؤوسة منهم ، اي الرعية. لأنه حيث تكون الرعية، أي الشعب المؤمن، من دون كهنوت مرتب بالأمر الإلهي، أو يكون الكهنوت مرفوضًا، لا تكون هناك كنيسة؛ لأن الرب الذي سُرَّ أن

يُشَخِّص المؤمنين به كنيسته هو نفسه أقام الكهنوت في كنيسته وبحسب إرادته نال الرعاة وحدهم الحق بأن يُعلموا الناس حقائق الإيمان المسيحي ويقدسوهم بالأسرار ويحفظوهم في دائرة السلام. على ذلك فإن الشعب بدون الرعاة المقامين فيهم قانونيًا يكون بلا تقديس. وهذا الأمر قد اجتهد آباء الكنيسة القدماء أن يعلموه للمؤمنين بعناية خاصة، الذين منهم:

القديس أغناطيوس المتوشح بالله الذي يقول: «حيث الأسقف فهناك الكنيسة»، كما يقول: «بدونهم (الأساقفة والكهنة والشمامسة) ليست هناك كنيسة وقد اقتنعتم بذلك مثلي»، (في رسالته إلى التراليين عدد٣).

والقديس ترتليانوس الذي يقول: «بدون الأسقف ليست كنيسة» (ضد ماركيون ٤).

والقديس إيبوليتوس الذي يقول: «فلا يتكبر الأسقف أمام الكهنة والشمامسة، ولا الكهنة أمام الشعب. لأن جسد الكنيسة مركب من الأولين والآخرين» (في المِنَّح ١).

والقديس كبريانوس الذي يقول: «إن الشعب المتحد مع الكاهن والقطيع الخاضع لراعيه يُشَخِّص الكنيسة. ولهذا يجب أن تعلموا أن الأسقف في الكنيسة والكنيسة في الأسقف، ومَن لم يكن مشتركًا مع الأسقف ليس في الكنيسة البتة» (رسالة ٦٩).

والقديس غريغوريوس اللاهوتي الذي يقول: «إن في الجسد قسمين قسم يسوس ويرأس، وقسم يُساس وينقاد. وهكذا في الكنيسة أيضًا... فإن الله قد رتب أن يكون هؤلاء المحتاجين إلى أولئك ملازمين واجباتهم التي عرفوها بالقول والمثال ويلبثوا رعية مرؤوسة. وأما الآخرون فلأنهم أعلى رتبة بفضائلهم ومقرَّبون من الله أكثر منهم فقد رُتب أن يكونوا رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة وأن يحفظوا نحو أولئك التناسب الذي بين النفس والجسد وبين العقل والروح حتى يكون كلا الأمرين، أعني نقص الرعية وفضل الرعاة شبيهين بالأعضاء في الجسد ومتحدين كواحد ومنضمين ومرتبطين رباط الروح فيؤلفان جسمًا واحدًا فقط كاملاً ولائقًا حق اللياقة بالمسيح رئيسنا» (خطاب ٣).

لهذا كانت كل جماعة من المسيحيين رفضت الطاعة لأسقفها وكهنتها وأقامت الخدم الإلهية بدونهم تُعتبر من الآباء القدماء غير مستحقة اسم

كنيسة، وتُلقب بهرطوقية وبجماعة منشقة وبرديئة النية وخبيثة، كما يقول كل من ايرونيموس (ضد الهرطقات ٤) و ترتليانوس (في الهرطقات فصل ٣٧).

الباب الثالث

درجات الكهنوت المرسومة من الله، كل درجة منهم، الفرق بينهم، وعدم إعادة السر

١- درجات سر الكهنوت

رُسم الكهنوت من الرب يسوع المسيح نفسه، "وَدَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَسُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ وَشِفَاءِ أَمْرَاضٍ، وَأَرْسَلَهُمْ لِيَكْرِزُوا بِمَلَكُوتِ اللهِ وَيَشْفُوا الْمَرْضَى" (لو ٩:١و٢)، "وَبَعْدَ ذلِكَ عَيَّنَ الرَّبُّ سَبْعِينَ آخَرِينَ أَيْضًا، وَأَرْسَلَهُمُ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى كُلِّ مَدِينَةٍ وَمَوْضِعٍ حَيْثُ كَانَ هُوَ مُزْمِعًا أَنْ يَأْتِيَ" (لو ١٠:١). ورُتب في الكنيسة من رسله القديسين كما تقتدي حاجتها لتكون الخدمة في الكنيسة بلياقة وترتيب. ومنذ إقامة الكهنوت قُسم إلى ثلاث درجات،

الأولى: هي درجة الأسقفية وهي العليا. كلمة "أسقف" باليونانية هي "ἐπίσκοπος" (episkopos) ومعناها رقيب أو ناظر أو محافظ، "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً (ἐπισκόπους)، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨).

والثانية: هي درجة القسوسية، أو الكهنوت، وهي تخضع للأولى. كلمة "قس" باليونانية هي "πρεσβύτερος" (presviteros)، "وَانْتَخَبَا لَهُمْ قُسُوسًا (πρεσβυτέρους) فِي كُلِّ كَنِيسَةٍ، ثُمَّ صَلَّيَا بِأَصْوَامٍ وَاسْتَوْدَعَاهُمْ لِلرَّبِّ الَّذِي كَانُوا قَدْ آمَنُوا بِهِ" (١تي ١٤:٢٣). كما أن هذه الكلمة اليونانية "πρεσβύτερος" معناها أيضًا "شيخ"، "اَلشَّيْخُ (Ὁ πρεσβύτερος)، إِلَى غَايُسَ الْحَبِيبِ الَّذِي أَنَا أُحِبُّهُ بِالْحَقِّ" (٣يو ١:١). في كنيستنا الأرثوذكسية تستعمل هذه الكلمة اليونانية بمعنيين "قسيس" و"كاهن".

والثالثة: وهي درجة الشموسية وهي الأخيرة. كلمة "شماس" باليونانية هي "διακόν" (diakon) ومعناها خادم، "يَجِبُ أنْ يَكُونَ الشَّمَامِسَةُ (διακό νους) ذَوِي وَقَارٍ" (١تي ٣:٨).

٢- مصادر إقامة درجات سر الكهنوت

أولاً: الكتاب المقدس. في الكتاب المقدس يوجد امتيازًا صريحًا لرتبة الأسقفية عن رتبة القسوسية. على أن استعمال الأسماء أحيانًا بناء على مجرد معناه الحرفي ومع قطع النظر عن الرتبة التي سُميت بها، كاستعمال اسم الأساقفة للقسوس من حيث هم أيضًا رقباء ومحافظون على الشعب، ليس من شأنه أن يلغي الامتياز الجوهري بين الرتبتين؛ لأن الرسل أنفسهم يُسمون ذاتهم بتلك الأسماء، كما يقول بطرس الرسول: "أطْلُبُ إِلَى الشُّيُوخِ (πρεσβυτέ ρους) الَّذِينَ بَيْنَكُمْ، أَنَا الشَّيْخَ (ὁ συμπρεσβύτερος) رَفِيقَهُمْ، وَالشَّاهِدَ لآلاَمِ الْمَسِيحِ، وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ" (١بط ٥:١)، ومع ذلك هم ذاتهم أعطوا الأساقفة امتيازًا خصوصيًا عن القسوس، أو الكهنة، وسلطة عليهم. فأعطوا الأساقفة حق إقامة الكهنة والشرطونية، كما قال بولس الرسول لتلميذه تيطس: "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا (πρεσβυτέρους = كهنة أو قسوس) كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥)، وأيضًا كما قال لتلميذه تيموثاوس: "لاَ تَضَعْ يَدًا عَلَى أَحَدٍ بِالْعَجَلَةِ" (١تي ٥:٢٢). وأعطوهم حق محاكمة القسوس، أو الكهنة، وتوبيخهم، كما يقول بولس الرسول كذلك لتيموثاوس: "لاَ تَقْبَلْ شِكَايَةً عَلَى شَيْخٍ (πρεσβυτέρου = كاهن أو قسيس) إِلاَّ عَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ. اَلَّذِينَ يُخْطِئُونَ وَبِّخْهُمْ أَمَامَ الْجَمِيعِ، لِكَيْ يَكُونَ عِنْدَ الْبَاقِينَ خَوْفٌ" (١تي ٥:١٩). كما أعطوا الأساقفة حق مكافئة أتعاب الكهنة، كما قال بولس أيضًا لتيموثاوس: "أَمَّا الشُّيُوخُ (πρεσβύτεροι = كاهنة أو قسوس) الْمُدَبِّرُونَ حَسَنًا فَلْيُحْسَبُوا أَهْلاً لِكَرَامَةٍ مُضَاعَفَةٍ" (١تي ٥:١٧). كما وضعوا في مصاف خدام الكنيسة الشمامسة، "بُولُسُ وَتِيمُوثَاوُسُ عَبْدَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، الَّذِينَ فِي فِيلِبِّي، مَعَ أَسَاقِفَةٍ (ἐ πισκό ποις) وَشَمَامِسَةٍ (διακό νοις)" (في ١:١).

هذه كلها وما شابهها من الحقوق نالها الأساقفة وسَمُوا بها وامتازوا بقوة خصوصية رفعتهم بلا ريب على الكهنة الذين لم يحصلوا عليها كما شهد التاريخ، والكهنة على الشمامسة الذين هم في مرتبة أقل منهم.

ثانيًا: خلفاء الرسل. إن الدليل على أن الرسل القديسين هكذا عملوا بتلك الآيات، وأن المعنى الذي فُهم من أقوالهم هو المعنى الصحيح ولا محل لتفسيرها على معنى آخر فهم الرجال الرسوليون، أي تلاميذ الرسل أنفسهم الذين هم أجدر من سواهم في إيضاح حقيقة معنى أقوال معلميهم؛ لأنهم لم يتركوا شبة البتة في إقامة الرتبة الأسقفية في الكنيسة من الله وفي أهميتها الرفيعة.

فالقديس إكليموندس أسقف رومية يقول: «إنه يجب علينا أن نعمل كل ما أمرنا به سيدنا في أوقاته المعينة بالترتيب وأن نتمم القرابين والخِدَم التي أمر أن لا تصير كيفما اتفق وبلا ترتيب، بل في أوقات وساعات معينة. وقد حدد أيضًا بمشيئته السامية أين؟ وممن؟ يريد أن تتمم لكي يكون كل ما يصير ببرٍ مقبولًا لدى مشيئته حاصلًا على تعطفه. فالذين يقدمون قرابينهم في أوقاتها المعينة هم مقبولون عنده ومغبوطون، فإنهم إذ تبعوا شرائع الرب لا يخطأُون؛ لأن "رئيس الكهنة" أُعطيت له خِدَم خصوصية، و"الكهنة" تعَيَّن لهم مكان خصوصي، و"اللاويون" (أي الشمامسة) لهم خدم خصوصية. وأما العامي فإنما هو مرتبط بالأوامر المتعلقة بالعوام»، كما يقول: «إن الخدام المذكرين أعلاه (الأساقفة والشمامسة) تثبتوا من الرسل» (رسالة أولى إلى أهل كورنثوس فصل ٤٠).

والقديس أغناطيوس المتوشح بالله يقول: «إن الأساقفة قد تعينوا إلى أقاصي الأرض بحسب مشيئة يسوع المسيح» (رسالته إلى الأفسوسيين فصل ٣)، «اتبعوا الأسقف كلكم كما يتبع يسوع المسيح أباه، والكهنة كالرسل، واكرموا الشمامسة حسب وصية الله» (رسالته إلى أهل أزمير فصل ٨)، «إن الشماس مرؤوس من الأسقف ومن الكهنة بنعمة يسوع المسيح وشريعته» (رسالته إلى أهل مغنيسيا فصل ٢)، «أتوسل إليكم أن تعملوا كل شيء بسلام الله تحت رئاسة الأسقف حيث مكان الله ذاته، والكهنة حيث مكان مصاف الرسل، والشمامسة المحبوبين مني جدًا الذين أُئتُمنوا على خدمة يسوع المسيح» (رسالته إلى أهل مغنيسيا فصل ٦)،

«أمر مفيد لكل منكم وعلى الأخص للكهنة أن تريحوا رئيس الكهنة راحة عذبة لمجد الآب ويسوع المسيح والرسل» (رسالته إلى أهل ترالليان فصل ١٢)، «يجب إظهار كل نوع من اللطف للشمامسة الذين هم خدمة أسرار الله فهم ليسوا خدامًا للمآكل والمشارب بل لكنيسة الله» (رسالته إلى ترالليانوس فصل ٢)،

والقديس إكليموندس السكندري يقول: «إن درجات الأسقف والكاهن والشماس الكنائسية تشبه بحسب رأيي المجد الملائكي» (ستر ٦).

وغيرهم يوضحون الأمر عينه.

ثالثًا: رعاة الكنيسة في القرون الأول والثاني والثالث. الذين منهم:

القديس إيريناوس الذي يقول: «جميع المخالفين لتعليم الكنيسة قد ظهروا متأخرين كثيرًا عن هؤلاء الأساقفة الذين أُئتُمنوا من الرسل على الكنائس» (ضد الهرطقات ٥).

والقديس ترتليانوس الذي يقول: «قد تخصص حق التعميد باكهنة الأعظمين (أي الأساقفة) ثم أُعطي للكهنة والشمامسة فقط ولكن لا من دون إذن الأسقف» (في المعمودية فصل ١٧).

والمغبوط أوريجنيس الذي يقول: «يُطلب مني أنا القس أكثر مما يُطلب من الشماس ومن الشماس أكثر من العامي ولكن الذي يضبط بيده السلطة الكنائسية يُطلب منه أكثر منا كلنا» (مقالة ١١ على إرميا فصل ٣). كما يقول: «إن بولس يتكلم عن رؤساء الكنيسة ومدبريها يعني الذين يحكمون في الكنيسة وهم الأساقفة والكهنة والشمامسة» (كتاب ٢ على رسالة رومية).

والعلامة أوسابيوس القيصري الذي يقول: «الدرجات ثلاثة أولها طغمة الرؤساء والثانية طغمة القسوس والثالثة طغمة الشمامسة» (على يشوع ١٨:١٩).

رابعًا: المجامع المسكونية والمكانية.

القانون ١٨ للمجمع المسكوني الأول الذي قيل فيه: «وليلبث الشمامسة ضمن حدودهم عالمين أنهم خدام للأسقف وأقل من القسوس... الخ».

والقانونين ٥٦ و٥٧ لمجمع اللاذقية المكاني الأول اللذين قيل فيهما: «لا يجوز تقدم القسوس على أسقفهم ويجب انقيادهم له... الخ».

وفي القرن الرابع عندما شَرَع آريوس يُعلم أن لا رئاسة للأسقف على الكاهن، فلم تُعرفه الكنيسة كلها إلا هرطوقيًا بحسب شهادة القديس أبيفانيوس (في هرطقة ٧٥) والمغبوط أوغسطينوس (في الهرطقات فصل ٥٣)

يتضح من هذه الشهادات كلها أن القدماء لم يميزوا بين الأساقفة والكهنة فقط بل كانوا يعترفون لهم بالرئاسة عليهم.

خامسًا: الجداول القديمة لأسماء الأساقفة الأولين في كنائس رسولية عديد، كانت قديمًا سلاحًا منيعًا للمدافعين عن صحة التعليم والتسليم ضد الهرطقات. من ذلك:

ما قاله القديس إيريناوس: «يمكنا أن نعدَّ الأساقفة الذين حكموا في الكنائس من عصر الرسل وأن نحصي خلفائهم أيضًا حتى أيامنا هذه» (ضد الهراطقة ٣)، ثم يُعدد أساقفة روميا على التتابع واحدًا فواحدًا إلى نهاية القرن الثاني تقريبًا.

وما قاله القديس ترتليانوس: «فليرونا مبدأ كنائسهم وليُظهروا لنا سلسلة لأساقفتهم متصلة مثل السلسلة التي نقدمها لهم ومتتابعة لتبيِّن أن الأول في عدد أساقفتهم كان خليفة لرسول أو لواحد من تلاميذ الرسل الذين عاشوا زمانًا طويلًا معهم. فإن الكنائس الرسولية تحفظ عندها قوائم فكنيسة أزمير مثلاً تبين بوليكاربوس مقامًا من يوحنا وكنيسة روميا كليمنضس مقامًا من بطرس. والكنائس الأخر تبين أيضًا رجالاً ارتقوا إلى درجة الأسقفية من الرسل ثم صاروا خلفاء لهم» (ضد الهراطقة فصل ٣٢).

وأوسابيوس القيصري صاحب التاريخ الكنسي حفظ سلاسل قديمة أخذها عن إيجيسيبوس منها سلسلة الخلافة لأساقفة كنيسة كورنثوس وروميا وأورشليم وهو أيضًا بناء على أثار غيرها يبين جدول أساقفة الكنائس الأكثر قدمًا (كتاب ٤ فصل ٥ و٢٢).

٣- عدم إعادة السر الكهنوت

إن سر الكهنوت حينما يناله الأساقفة والكهنة والشمامسة بحسب درجاتهم يرسم في نفس كل واحد منهم رسمًا من النعمة الإلهية لا يُمحى أثره. ومن ثَمَّ لا ينال أحد منهم شرطونية ثانية للرتبة الكهنوتية الواحدة، أي أن سر الكهنوت لا يُعاد.

فالحقيقة الأولى بأن سر الكهنوت يرسم في النفس رسمًا من النعمة الإلهية، قد علَّمها بولس الرسول حيث ذكر لتلميذه الأسقف تيموثاوس عن النعمة الإلهية بقوله له: "لاَ تُهْمِلِ الْمَوْهِبَةَ الَّتِي فِيكَ، الْمُعْطَاةَ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ مَعَ وَضْعِ أَيْدِي الْمَشْيَخَةِ" (١تي ٤:١٤)، وبقوله له: "فَلِهذَا السَّبَبِ أُذَكِّرُكَ أَنْ تُضْرِمَ أَيْضًا مَوْهِبَةَ اللهِ الَّتِي فِيكَ بِوَضْعِ يَدَيَّ" (٢تي ١:٦).

والحقيقة الثانية بأن الشرطونية لا تعاد إن كانت قانونية وصحيحة ذلك أنها والمعمودية تتممان بحلول الروح القدس، فقد ذُكر في،

قوانين الرسل: «كل أسقف أو قس أو شماس يقبل شرطونية ثانية من أحد يُقطع هو والذي شرطنه ما لم يُبيّن أنه نال الشرطونية من هراطقة، لأن المُعمَدين أو المُشرطَنين من هؤلاء (أي الهراطقة) لا يمكن أن يكونوا مؤمنين أو إكليروسيين» (القانون ٦٨).

وقوانين مجمع قرطاجنة: «لا تسمح بإعادة المعمودية والشرطونية أو نقل الأساقفة» (القانون ٣٥ و٥٧).

كما أن المغبوط أوغسطينوس يقول: «لأنهما كليهما سر وكلاهما يُتممان للإنسان بالتقديس إحدهما عندما يُعمَّد والآخر عندما يُشرطَن... فهم يفسرون كيف لا يمكن أن يكون سر المعمودية حتميًا وأن يكون سر الشرطونية مختومًا. فما دام كلاهما سرًا ولا أحد يرتاب بذلك لماذا ذاك لا يُرفض وهذا يُرفض من دون ان يُظلم أحدهما» (ضد الدوناتيين كتاب ٢:١٣).

بالإجمال إن الكنيسة قد اعتبرت عدم إعادة المعمودية والشرطونية القانونية لا يخالف في ظرف من الظروف، غير أنه يشترط فيهما أن تكونا قد تَمَّتا قانونيًا. وهكذا تفعل اليوم فإنها لا تعيد شرطونية الراجعين إلى الأرثوذكسية من الإكليروس إذا كانت قانونية. وقد حكم قديمًا مجمع في روميا على دوناتوس لإعادته شرطونية الذين سقطوا حين الاضطهاد من الأساقفة والكهنة، إذ خالف نواميس الكنيسة الجامعة. والقديس باسيليوس الكبير وبخ إفسطاسيوس أسقف سبسطية لإعادته الشرطونية (رسالة ١٣٠).

أما الشرطونيات غير القانونية وغير المشروعة المقامة من الهراطقة فلم تعرفها الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة. فكانت تشرطن الإكليروسيين الذين كانوا يأتون إليها منهم بعد أن تفحصهم وتجدهم أهلاً للكهنوت، ذلك كما تأمر قوانين المجامع المسكونية والمكانية وقوانين القديسين (القانون ١٩ للمجمع المسكوني الأول، والقانون ٤ للمجمع المسكوني الثاني، والقانون ٥ للمجمع المسكوني الثالث، والقانون ٨ لمجمع اللاذقية المكاني، والقانون ١ للقديس باسيليوس الكبير).

والكنيسة هكذا سلكت مع أتباع آريوس، وبالإجمال مع جميع الذين سيموا من أساقفة كذبة ولم يُقاموا في الكنيسة بشكل قانوني. وهي لم تزل على هذا السلوك إلى الآن مع أكثر الخارجين عنها وعلى الخصوص مع البروتستانت الذين لايعترفون بالكهنوت الملوكي الخاص المقام من الله لخدمة الأسرار المقدسة. وهنا يقال ما قيل عن معمودية الهراطقة أيضًا وهو أن شرطونية إكليروسهم ليست إعادة شرطونية، بل هي الشرطونية الحقة إذ أن الشرطونية التي كانو قد نالوها ليست فعلية ولا حقيقية بل هي بالاسم شرطونية ليس إلا.

الباب الرابع

الفصل الأول

العلاقة بين درجات الكهنوت الثلاثة بينها البعض، وبين الرعية

١- العلاقة بين درجات الكهنوت ببعضها وبين الرعية

أولاً: في العلاقة بين درجات الكهنوت بعضها البعض:

يقول القديس أمبروسيوس: «واعلم أن نعمة الكهنوت وإن كانت واحدة لكنها تُمنح على درجات متنوعة للمرسومين بالسر. فالشماس ينالها بدرجة أدنى والكاهن بدرجة أرفع والأسقف بالدرجة الأولى، وكل واحد منهم ينالها بدرجة مناسبة إلى خدمته في الكنيسة. وهكذا يكون الأسقف المعلم الأول والخادم الأول للأسرار المقدسة ورئيس الرعاة الأول في كنيسته المكانية. أما الكاهن فإذ ينال الرتبة الكهنوتية من الأسقف ينال معها حق التعليم وخدمة الأسرار في الأبرشية المختصة بالأسقف الذي شرطنه ويخضع له. وأما الشمامسة فإنهم يساعدون الأساقفة والكهنة في الخِدَم وليس لهم الحق أن يُعلموا ويخدموا وحدهم» (في الرتبة الكهنوتية فصل ٥).

ثانيًا: في العلاقة بين درجات الكهنوت وبين الرعية:

العلاقة بين الدرجات الكهنوتية الثلاثة وبين الرعية تتضح في أن الأسقف هو مقام من الله في كنيسته المكانية المقام عليها، أو رعيته، كما يقول بولس الرسول: "لأَنَّ كُلَّ رَئِيسٍ كَهَنَةٍ مَأْخُوذٍ مِنَ النَّاسِ يُقَامُ لأَجْلِ النَّاسِ فِي مَا لِلهِ" (عب ٥:١). ذلك كي تتقدس بواسطتهم كل الرعية التي أقيموا عليها. كما أنهم مسؤولون عن الرعية التي أقيموا عليها من الله، كما

يقول أيضًا بولس الرسول: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨).

٢- العلاقة بين درجات الكهنوت من القوانين الكنائسية

إن الأسقف هو الرئيس الأول على الإكليروس الذي تحت إدارته وعلى رعيته. وقد أخذ من الرسل الحق القاطع أن يقيم في كنيسته كل الرعاة الخصوصيين، فهو الذي يمنحهم الحقوق والسلطة الروحية على الرعية ويقدس بواسطتهم كل الرعية التي تحت عنايته. كما يقول بولس الرسول: "لأَنَّ كُلَّ رَئِيسِ كَهَنَةٍ مَأْخُوذٍ مِنَ النَّاسِ يُقَامُ لأَجْلِ النَّاسِ فِي مَا لِلهِ... وَلاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ هذِهِ الْوَظِيفَةَ بِنَفْسِهِ، بَلِ الْمَدْعُوُّ مِنَ اللهِ" (عب ٥:١-٤).

وقد حددت القوانين الكنائسية العلاقة بين درجات الكهنوت الثلاثة، ليكون كل عمل في الكنيسة بلياقة وترتيب بحسب الإنجيل المقدس،

فالقانون ٢٥ من قوانين الرسل يقول: «كل قس أو شماس أو أحد المعدودين في جدول الإكليروس عمومًا ترك مركزه وذهب إلى غيره وانتقل منه انتقالاً تامًا وأقام في غيره من دون معرفة أسقفه نأمر أن لا يخدم الخدم الإلهية في تلك الحاله. ثم إذا دعاه أسقفه ليرجع ولم يطع وأصر على طياشته فليتناول الأسرار حيث هو مثل العوام».

والقانون ٣١ من قوانين الرسل يقول: «كل قس احتقر أسقفه وأقام الصلاة منفصلاً عنه وبنى مذبحًا آخر من دون يُثبت على الأسقف شيئًا لا يوافق الإيمان والبر فليقطع إذ هو محب للرئاسة».

والقانون ٣٩ من قوانين الرسل يقول: «لا يُقيِّمنَ القسوس والشمامسة خدمة من دون معرفة الأسقف لأنه هو المُسلَّم شعب الرب وهو الذي يُطلب منه الجواب».

والقانون ١٨ للمجمع المسكوني الأول يقول: «إن الشمامسة هم خدام الأساقفة وأقل من الكهنة وإنه لا يُسمح لهم الجلوس بين الكهنة بل بعدهم».

والقانون ٢٠ من قوانين مجمع اللاذقية يقول: «لا يجب أن يجلس الشماس قبل الكاهن (في الترتيب) إلا بأمره».

والقانون ٥٦ من قوانين مجمع اللاذقية يقول: «لا يجوز للقسوس أن يدخلوا قبل دخول الأسقف ويجلسوا في الهيكل بل يدخلون مع الأسقف، ما لم مريضًا أو غائبًا».

والقانون ٥٧ من قوانين مجمع اللاذقية يقول: «وأيضًا لا يجوز للقسوس أن يعملوا شيئًا من دون إرادة الأسقف».

الفصل الثاني

المسؤولية المُناطة بكل درجة من الدرجات الكهنوتية الثلاثة، وحقوق كل منها

١- المسؤولية المُناطة بالأسقف

الأسقف هو الرئيس الأول في كنيسته على الشعب وعلى رعايته، فهو المناط به التعليم والوعظ، والحفاظ على وحدة الكنيسة وسلامها الداخلي، والرقابة على أصحاب الرتب الكنسية وتقويم المعوج منهم، والحفاظ على نقاوة ٱيمان القويم في الكنيسة وبين شعبها، وتدبير أمور الكنيسة الروحية والمادية. كما يقول بولس الرسول إلى تلميذه تيموثاوس: "اكْرِزْ بِالْكَلِمَةِ. اعْكُفْ عَلَى ذلِكَ فِي وَقْتٍ مُنَاسِبٍ وَغَيْرِ مُنَاسِبٍ. وَبِّخِ، انْتَهِرْ، عِظْ بِكُلِّ أَنَاةٍ وَتَعْلِيمٍ... وَأَمَّا أَنْتَ فَاصْحُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. احْتَمِلِ الْمَشَقَّاتِ. اعْمَلْ عَمَلَ الْمُبَشِّرِ. تَمِّمْ خِدْمَتَكَ" (٢تي ٤:٢-٥)، وكذلك إلى تلميذه تيطس: "تَكَلَّمْ بِهذِهِ، وَعِظْ، وَوَبِّخْ بِكُلِّ سُلْطَانٍ. لاَ يَسْتَهِنْ بِكَ أَحَدٌ" (تي ٢:١٥). كما يأمر تلميذه تيموثاوس أيضًا أن يهذب ويعلم أمور الإيمان للمعلمين الذين بعده بقوله له: "وَمَا سَمِعْتَهُ مِنِّي بِشُهُودٍ كَثِيرِينَ، أَوْدِعْهُ أُنَاسًا أُمَنَاءَ، يَكُونُونَ أَكْفَاءً أَنْ يُعَلِّمُوا آخَرِينَ أَيْضًا" (٢تي ٢:٢)، وأن يُلاحظهم في تعليمهم وتدبيرهم ويكرم النشيطين منهم في البشارة إكرامًا مضاعفًا بقوله له: "أَمَّا الشُّيُوخُ الْمُدَبِّرُونَ حَسَنًا فَلْيُحْسَبُوا أَهْلاً لِكَرَامَةٍ مُضَاعَفَةٍ، وَلاَ سِيَّمَا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ فِي الْكَلِمَةِ وَالتَّعْلِيمِ" (١تي ٥:١٧).

وهذا التعليم نفسه تُعلمه القوانين الرسولية بالقول: «إن الأسقف والقس الذي يهمل الإكليروس والشعب ولا يُعلمهم الإيمان يوقف. وإن لبث في الاهمال والتواني يُقطع» (القانون ٥٨). وكذلك الأوامر الرسولية التي تأمر أنه: «يجب على الأسقف أن يسهر على ما يحفظ النقاوة والحقيقة في الكنيسة» (كتاب ٢ فصل ٢٦).

كما يعلمه القديس أغناطيوس الأنطاكي بطلب أن يكون للكنيسة أكثر من اجتماع، بقوله للقديس بوليكاربوس: «أكثِر من الاجتماعات» (رسالته إلى بوليكاربوس ٢:٤)، وهذا يعني أنه كانت هناك اجتماعات غاير الاجتماع الأسبوعي في يوم الرب. وهو أمرٌ يظهر بوضوح من الدراسة الدقيقة لسفر أعمال الرسل.

وكذلك تعلمه قوانين المجامع المسكونية، فالمجمع السادس في قوانينه يقول: «يجب أن يعلم رؤساء الكنيسة الاكليروس والشعب كلمات التقوى كل يوم وعلى الخصوص في أيام الآحاد» (القانون ١٩).

ولهذا كان الآباء المدافعون قديمًا عن المسيحية يثبتون ضد الهراطقة أن التسليم الحقيقي وتعليم المسيح قد حفظا بنوع خاص في الكنيسة من عصر الرسل أنفسهم بتواصل الأساقفة غير المنقطع، كما القديس إيريناوس (في ضد الهرطقات ٣:٣) والقديس ترتليانوس (في الهراطقة ٣٢).

٢- المسؤولية المُناطة بالكهنة

إن الشمامسة حينما ينالون رتبة الكهنوت من الأسقف بسر وضع الأيدي ينالون معه حق التعليم أيضًا في رعيتهم وعليهم استعمال هذا الحق بعناية وتدبير، كما يقول بولس الرسول: "أَمَّا الشُّيُوخُ الْمُدَبِّرُونَ حَسَنًا فَلْيُحْسَبُوا أَهْلاً لِكَرَامَةٍ مُضَاعَفَةٍ، وَلاَ سِيَّمَا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ فِي الْكَلِمَةِ وَالتَّعْلِيمِ" (١تي ٥:١٧). على أنهم عندما يُعلمون يكونون دائمًا تحت ملاحظة وحكم الأسقف رئيس رعاتهم، كما يُذكر في قوانين الرسل (القانون ٣٢). ويحق للأسقف أن يمنع الكاهن عن التعليم عند الاقتضاء.

٣- المسؤولية المُناطة بالشمامسة

إن الشمامسة مسموح لهم ويمكنهم أيضًا أن يُعلموا الشعب ويقوموا خطباء في الكنيسة ومبشرين بسماح وموافقة الأسقف، كما كان في أوائل

المسيحية وأن يعملوا فيها كما فعل الشمامسة الأولون مثل استفانوس، "وَأَمَّا اسْتِفَانُوسُ فَإِذْ كَانَ مَمْلُوًّا إِيمَانًا وَقُوَّةً... فَنَهَضَ قَوْمٌ مِنَ الْمَجْمَعِ... يُحَاوِرُونَ اسْتِفَانُوسَ. وَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُقَاوِمُوا الْحِكْمَةَ وَالرُّوحَ الَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ" (أع ٦:٨-١٠)، ومثل فيلبس، "فَانْحَدَرَ فِيلُبُّسُ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ وَكَانَ يَكْرِزُ لَهُمْ بِالْمَسِيحِ. وَكَانَ الْجُمُوعُ يُصْغُونَ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى مَا يَقُولُهُ فِيلُبُّسُ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِمْ" (أع ٨:٥و٦)، "فَفَتَحَ فِيلُبُّسُ فَاهُ وابْتَدَأَ مِنْ هذَا الْكِتَابِ فَبَشَّرَهُ (الخصي الحبشي وزير كنداكة ملكة الحبشة) بِيَسُوعَ" (أع ٨:٣٥). وأخص واجباتهم التعليمية هي أن يُعلموا الأطفال والموعوظين.

٤- الحقوق الكنائسية للأسقف

لما كان الأسقف هو بنعمة الروح القدس المُتمم الأول والمدبر الأول للأسرار المقدسة في كنيسته المُقام عليها وقد خُص به بعض الخِدَم من دون غيره كما كان منذ القديم، فله وحده الحق مثلاً أن يُقيم كهنة ويمنح الرتب الكنائسية. بناء على وصية بولس الرسول لتلميذه تيطوس بقوله له: "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥)، وكذلك لتلميذه تيموثاوس بقوله له: "لاَ تَضَعْ يَدًا عَلَى أَحَدٍ بِالْعَجَلَةِ" (١تي ٥:٢٢).

وبناء على قوانين الرسل القديسين (القانون ٢)، وكتاب أوامر الرسل (٢:٣). وأوامر المجامع (القانون ٩ لمجمع أنطاكية)، يعتبرون هذا الحق امتيازًا للأسقف على الكهنة. وأيضًا بناء على رأي آباء الكنيسة كلهم،

كما يقول القديس إيرونيموس: «ماذا يعمل الأسقف ولا يعمله القس خلا الشرطونية» (رساله ٨٥).

وكما يقول القديس أبيفانيوس: «إن رتبة الأساقفة هي مُقامة بنوع خاص لولادة الآباء (الكهنة) لأن هذا الأمر منوط بالأساقفة أعني تكثير الآباء. وتوجد رتبة ثانية (الكهنة) وهذه لا يمكنها أن تلد آباء فهي تلد بحميم إعادة الولادة أولادًا للكنيسة ولكنها لا تلد آباء ومعلمين. وكيف يمكن أن يقيم كاهن كاهنًا آخر من دون أن يكون له حق الشرطونية لإقامته؟ أو كيف يمكن أن يسمَّى الكاهن مساويًا للأسقف؟» (في هرطقة ٧٥).

كما أن القديس يوحنا الذهبي الفم يميز الأساقفة عن الكهنة بالشرطونية فقط (مقالة ١١ على الرسالة الأولى لتيموثاوس).

كذلك للأسقف وحده حق تقديس الميرون المقدس وتدشين الكنيسة وتكريس المذبح والأنديمنسي كما توضح قوانين المجامع (مجمع قرطاجنة قانون ٦)، وتعاليم الكنيسة الأرثوذكسية (الاعتراف القويم قسم ١ جواب ١١٥). أما بقية الأسرار وإن كان حق تتميمها ليست محصورة بالأسقف وحده، مع ذلك لا يُسمح لغيره أن يقيمها ويوزعها في الكنيسة القائم عليها دون معرفته وسماح منه؛ لأنها مسلمة منه لهم (الكهنة) أن يقيموها.

٥- الحقوق الكنائسية للكاهن

للكاهن أيضًا حق أن يتمم الأسرار والخدم الإلهية إجمالاً، ما عدا المختصة منها بالأسقف وحده (المجمع المسكوني الأول القانون ١٨). ولكن هذا الحق يُعطى له من رئيس رعاته عندما يمنحه الرتبة الكهنوتية، مع ذلك وحتى أنه بعد ما ينال هذا الحق إنما يستعمله تحت ملاحظة ورضى وسلطة رئيس رعاته (قوانين الرسل القانون ٣٩).

وفي إقامة بعض الأسرار هو لا يمكنه أن يستغني عن الأسقف، فهو لا يستطيع مثلاً أن يتمم سر الميرون المقدس وحده ويوزعه بل له أن يشارك في الحضور فقط، لأن حق تتميم هذا السر يخص الأسقف وحده.

٦- الحقوق الكنائسية للشماس

إن الشماس لا حق له في إقامة الأسرار المقدسة والخِدَم الإلهية إجمالاً (أوامر الرسل ٨:٤٦). وإنما خدمته هي المساعدة فقط لا التتميم (القديس ديونيسيوس الأريوباغي، في رئاسة الكهنوت ٥). لأن الشمامسة ليسو سوى خدام أسرار المسيح وخدام الأساقفة (القديس كبريانوس، رسالة ٦٥). وبالإجمال هم مساعدو الكهنة (يوستينوس، في احتجاجه ١:٨٥).

الفصل الثالث

السلطة الكنائسية لكل درجة من الدرجات الكهنوتية الثلاثة، وأهمية الأسقف

١- السلطة الكنائسية للأسقف

الأسقف هو المدبر الأول للكنيسة القائم عليها بحسب الإنجيل المقدس، "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨)، وله قبل سواه السلطة على الكهنوت الذي يرأسه، وعلى جميع الخِدَم الكنائسية. وجميع الكهنة والشمامسة وخدام الكنيسة بجميع درجاتهم (قارىء، واعظ، مرتل، خادم الهيكل، وقندلافت... الخ) يجب على كل منهم أن يتبع ترتيبهم، وأن لا يعملوا عملاً في الكنيسة من دون موافقة ورضى الأسقف (القانون ٣٦ للرسل والقانون ٥٧ لمجمع اللاذقية وغيرهما). وعليهم الخضوع والانقياد لحكمه، كما يقول بولس الرسول تلميذه تيطس عن الأشياخ (الشيوخ أي القسوس) بقوله له: "ذَكِّرْهُمْ أَنْ يَخْضَعُوا لِلرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينِ، وَيُطِيعُوا، وَيَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ" (تي٣:١). كما أن له أن يُقاصصهم عند الحاجة (القانون ١٥ و٣٢ للرسل، القانون ٨ لمجمع اللاذقية، القانون ٣٤ للمجمع السادس المسكوني).

كما أن الرعية كلها أيضًا هي تحت سلطة الأسقف الروحية، فيجب عليه أن يلاحظ في دائرة أبرشيته تطبيق الشرائع الإلهية وأوامر الكنيسة (إكليموندس اسقف روميا رسالة ١، كبريانوس رسالة ٦٤)، وهو بنوع أخص له فيها حق الحل والربط وفقًا لقوانين الرسل (القانون ٣١ للرسل، القانون ٦ لمجمع قرطاجنة) وشهادات آباء الكنيسة القدماء جميعًا

(كبريانوس رسالة ٧٥، ترتليانوس في التوبة ٤ و٧، غريغوريوس الكبير كتاب ٢ مقالة ٢٦). ولهذا السبب كان تلاميذ الرسل يحثون المؤمنين كثيرًا على الطاعة للأسقف.

٢- السلطة الكنائسية للكاهن

للكهنة حق الحل والربط، وبالإجمال أن يرعوا رعية الله التي ائتمنهم عليه، كما يقول بطرس الرسول: "أَطْلُبُ إِلَى الشُّيُوخِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ... ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ نُظَّارًا، لاَ عَنِ اضْطِرَارٍ بَلْ بِالاخْتِيَارِ، وَلاَ لِرِبْحٍ قَبِيحٍ بَلْ بِنَشَاطٍ، وَلاَ كَمَنْ يَسُودُ عَلَى الأَنْصِبَةِ، بَلْ صَائِرِينَ أَمْثِلَةً لِلرَّعِيَّةِ" (١بط ٥:١-٣)، غير أنهم ينالون هذه السلطة من الأساقفة بوضع الأيدي. كما أن بعض من المنتخبين يُقامون أحيانًا بإرادة الأسقف ليحملوا معه إدارة شؤون الأبرشية الكنائسية (كبريانوس رسالة ١٣)، وهكذا يؤلفون جمعية قائمة بمثابة أعين للأسقف ولا يصنعون شيئًا من دون موافقته.

٣- السلطة الكنائسية للشماس

إن الشمامسة لم يأخذوا حق الحل والربط من الرب، وبالإجمال ليست لهم سلطة روحية على المؤمنين ولكن يمكنهم أن يكونوا بمثابة «أعين وأذن للأسقف» (أوامر الرسل ١٩:٣ و٤٤)، «وأيدٍ لرؤساء الكهنة» ليقيموا معهم وبرضاهم الخدم الإلهية (كبريانوس رسالة ٤٤، أبيفانيوس هرطقة ٧٤).

٤- أهمية الأسقف

من كل ما تقدم يُفهم ما هي الأسماء والحقوق السامية التي تُعطى عادة للأسقف، وهي: «أنهم هم وحدهم خلفاء الرسل» (إيريناوس ضدج الهراطقة ٤، ترتليانوس في الهراطقة ٣٢، كبريانوس رسالة ٤٢ و٦٤ وغيرهم)، و«عليهم تستند الكنيسة كما على أعمدتها» (كبريانوس رسالة ٢٤ و٢٧، باسيليوس رسالة ٨١)، وأن «الأسقف هو صورة الله الحية على الأرض وبنعمة الروح القدس هو النبع المفيض كل أسرار الكنيسة المسكونية التي بها يحصل الشعب المؤمن على السلام، وبالإجمال إن ضرورة الأسقف للكنيسة هي كضرورة الاستنشاق للإنسان والشمس للعالم» (رسالة بطاركة الشرق بند ١٠)، وأنه «مركز للمؤمنين الذين منهم تتألف أبرشيته»

(أغناطيوس إلى أفسس ٣ وإلى فلادلفيا ٤)، و«هو الرئيس الخاص لرعيته الروحية» (الاعتراف القويم قسم ١ جواب ٨٥). وأخيرًا وكما يقول القديس كبريانوس: «إن الأسقف هو في الكنيسة، والكنيسة هي في الأسقف ومَنْ لا يشترك مع الأسقف فليس من الكنيسة» (رسالة ٦٤:٨).

الباب الخامس

القسم المنظورمن سر الكهنوت، وفعله غير المنظور، ونتائجهما

١- القسم المنظور من السر

إن الكهنوت هو سر حقيقي لأنه ليس مؤسسًا من الله رأسًا فقط (كما ذُكر سابقًا)، بل له علامة منظورة أيضًا وهي وضع الأيدي الذي به ينال المنتدبون له نعمة خصوصية وموهبة سامية من الله حتى إنهم يُقامون في خدمتهم من الروح القدس. فتكون قد اجتمعت بذلك جميع أوصاف السر في الكهنوت، أي إنه سر مقدس كسائر الأسرار المقدسة.

فالقسم المنظور من سر الكهنوت، أي الشرطونية، يتألف من قسمين: وضع الأيدي والصلاة.

القسم الأول: وضع الأيدي. يشهد الكتاب المقدس أن الشرطونية كانت منذ القديم تتمّم بوضع الأيدي سواء كانت للدرجة الأسقفية، كما يقول بولس الرسول إلى تيموثاوس: "لاَ تُهْمِلِ الْمَوْهِبَةَ الَّتِي فِيكَ، الْمُعْطَاةَ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ مَعَ وَضْعِ أَيْدِي الْمَشْيَخَةِ" (١تي ٤:١٤)، وكذلك قوله له: "فَلِهذَا السَّبَبِ أُذَكِّرُكَ أَنْ تُضْرِمَ أَيْضًا مَوْهِبَةَ اللهِ الَّتِي فِيكَ بِوَضْعِ يَدَيَّ" (٢تي ١:٦). أو كانت للقسوسية، كما يقول بولس الرسول إلى تيموثاوس: "لاَ تَضَعْ يَدًا عَلَى أَحَدٍ بِالْعَجَلَةِ" (١تي ٥:٢٢)، كما لتيطس: "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا (πρεσβυτέρους = كاهنة أو قسوس) كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥). أو كانت للشموسية، كما ذُكر في سفر أعمال الرسل: "الَّذِينَ أَقَامُوهُمْ (لِخِدْمَةِ الْكَلِمَةِ) أَمَامَ الرُّسُلِ، فَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمِ الأَيَادِيَ" (أع ٦:٦).

بالمثل الأوامر الرسولية تقول: «أيها الأسقف عندما تُشرطن قسًا ضع يديك على رأسه» (كتاب ٨:١٦).

كما تعلم ذلك المجامع المسكونية، المجمع المسكوني الأول (القانون ٤و١٩) والمجمع المسكوني الرابع (القانون ٦). وأيضًا المجامع المكانية، المجمع الأنطاكي (القانون ١٠) ومجمع قرطاجنة (القانون ١٠٠).

والشهود الصادقون لهذا التسليم الرسولي هم آباء الكنيسة القديسون ومعلميها،

فآباء المجمع المسكوني الرابع يحددون هكذا: «كل أسقف يضع شرطونية مبتاعة بدراهم ويضع النعمة التي لا تباع تحت البيع ويُشرطن بالدرهم أسقفًا أو خوريًا أو قسًا أو شماسًا أو أحد غيرهم من الذين يحصون مع الإكليروس، أو يقيم بالدرهم إيكونوموس (مدبر في الكنيسة) أو مدافعًا كنائسيًا (المدافع عن الملتجئين إلى الكنيسة) أو مواظبًا (الملازم للكنيسة لاستقبال الزائرين فيها) أو أحدًا من صفهم أيا كان لربح شخصي فبعد أن يُفحص أمره ويثبت ذنبه يُقطع من درجته، والذي شُرطن منه لا تنفعه شرطونيته وسيامته التجارية. وليكن غريبًا عن الموهبة أو الوظيفة التي نالها بالدراهم، وإن ظهر أحد متوسطًا لهذه الدراهم القبيحة والمُحرَمة بهذه الصورة فإن كان إكليروسيًا فليُقطع من درجته وإن كان عاميًا راهبًا فليُفرز هو أيضًا» (قانون ٢ وقانون ٥ للمجمع المسكوني السابع).

والقديس باسيليوس الكبير يقول: «أما الذين خرجوا عن الكنيسة فلن ينالوا بعد ذلك نعمة الروح القدس عليهم، لأن منح النعمة قد زال لانقطاع الخلافة. لأن الذين خرجوا أولاً كانوا قد نالوا الشرطونيات من الآباء وبوضعه أيديهم حصلوا على الموهبة الروحانية» (الرسالة القانونية الأولى قانون ١).

والقديس يوحنا الذهبي الفم يقول: «انظر كيف أن المؤلّف لا يذكر شيئًا عبثًا. لأنه لم يقل كيف شُرطِن، بل قال قولاً بسيطًا أنه شُرطِن بالصلاة. وهذه هي الشرطونية كلها إذ توضع اليد على رأس الرجل والله يفعل كل شيء، ويده هي التي تمس رأس المُشرطَن إذا شُرطِن كما يجب. وانظر كيف كان بين السبعة (شمامسة) واحد مميزًا ونال الأولوية، فإن الشرطونية وإن كانت عامة لكن هذا نال نعمة أكثر. وقبل الآن لم يكن يفعل آيات بل بعد أن نودِيَ به لكي يتضح أن النعمة وحدها لا تكفي وأن الشرطونية هي ضرورية معها. فقد زاد عليهم نعمة الروح القدس وإن كانوا قبل الآن

ممتلئين من الروح غير أن ذلك يشير إلى نعمة الحميم (المعمودية) فقط» (مقالة ١٤:٣ على أعمال الرسل).

القسم الثاني: الصلاة. كما ذُكر في سفر أعمال الرسل: "اَلَّذِينَ أَقَامُوهُمْ (لِخِدْمَةِ الْكَلِمَةِ) أَمَامَ الرُّسُلِ، فَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمِ الأَيَادِيَ" (أع ٦:٦). وكذلك كما ذُكر فيه عن بولس وبرنابا: "وَانْتَخَبَا لَهُمْ (لمؤمنين لسترة وإيقونية وأنطاكية) قُسُوسًا فِي كُلِّ كَنِيسَةٍ، ثُمَّ صَلَّيَا بِأَصْوَامٍ وَاسْتَوْدَعَاهُمْ لِلرَّبِّ الَّذِي كَانُوا قَدْ آمَنُوا بِهِ" (أع ١٤:٢٣).

كما ذكر معلمو الكنيسة القدماء صلاة الشرطونية التي بها يُستدعى الروح القدس على المرسوم بوضع اليد،

فكيليستينوس أسقف روميا لمجمع أفسس يقول: «وقد صلينا على رأسه إفشينًا (صلاة) سرية» (رسالة ٢:٢٢). وهذه الصلاة لم تزل مستعملة في كنيستنا الأرثوذكسية إلى يومنا، والتي هي: «النعمة الإلهية التي في كل حين تشفي المرضى وتُكمل الناقصين تنتدب الشماس (فلان) الكلي الورع قسًا [أو الإيبوذياكون (فلان) الكلي الورع شماسًا]. فلنصل إذًا من أجله لكي تأتي عليه نعمة الروح الكلي القدسه» (كتاب الأفخولوجي في الشرطونية).

والقديس لاون الكبير يقول: «إنه فضلاً عن المسحة الرسمية التي وصلت إلينا كما نعلم عن طريق التسليم الرسولي يعلمنا الكتاب المقدس أن الرسل لما أرسلوا بأمر الروح القدس بولس وبرنابا ليبشروا بالإنجيل في الأمم "حينئذ صاموا وصلوا ثم وضعوا عليهما الأيدي وأطلقوهما" لكي نتعلم بأي وقار يجب أن نكرم الشرطونية وننالها، وكم يهمنا أن لا يتم سر ذو بركة كهذه على بسيط الحال. فاظهروا إذًا خضوعًا تقويًا وممدوحًا للأوامر الرسولية محافظين على هذا الترتيب في شرطونية الكهنة على الكنائس التي أقامكم الرب رؤساء عليها» (رسالة إلى ديوسفورس ١:٨١).

٢- القسم غير المنظور من السر وفعله

إن نتيجة سر الكهنوت غير المنظورة في المشرطن هي أنه ينال بالشرطونية نعمة إلهية حقيقية مناسبة لخدمته المُنتدب لها، وهي نعمة الكهنوت. وقد تكلم بولس الرسول عن هذه النعمة في رسالته إلى تيموثاوس

المُشرطن منه أسقفًا على أفسس، حيث يقول له: "لاَ تُهْمِلِ الْمَوْهِبَةَ الَّتِي فِيكَ، الْمُعْطَاةَ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ مَعَ وَضْعِ أَيْدِي الْمَشْيَخَةِ" (١تي ٤:١٤)، وأيضًا: "فَلِهذَا السَّبَبِ أُذَكِّرُكَ أَنْ تُضْرِمَ أَيْضًا مَوْهِبَةَ اللهِ الَّتِي فِيكَ بِوَضْعِ يَدَيَّ" (٢تي ١:٦).

كما يشهد آباء الكنيسة القديسين عن نتيجة سر الكهنوت غير المنظورة وفعله،

فآباء المجمع المسكوني الرابع يصفونها بقولهم: «نعمة لا تباع» (قانون ٢).

والقديس باسيليوس الكبير يسميها: «نعمة روحانية» (رسالة قانونية أولى قانون ١).

والقديس يوحنا الذهبي الفم يسميها: «نعمة زائدة وإضافة روح» (مقالة ١:١٥ على أعمال الرسل). كما يقول: «(إن قول بولس لتيموثاوس) إني أُذكرك أن تُذكي موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ، يعني هنا نعمة الروح التي نالها لرئاسة الكنيسة وللآيات ولكل العبادة فإنها في يدكم أن تطفئوها أو تذكوها» (على ٢تي مقالة ١:٢). وأيضًا يقول: «فإنه لو افتكر أحد بأن يستطيع الدنو من تلك الطبيعة المغبوطة النقية لكان يرى جيدًا لأية كرامة نعمة الروح أهلت الكهنة، لأنها بهم تُتمم هذه وغيرها مما ليس دونها في أمر وظيفتنا وخلاصنا. فإن رجالاً ساكني الأرض وسالكين فيها تنوطوا أن يسوسوا ما في السماوات ونالوا سلطانًا لم يُعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة» (في الكهنوت ٣:٥).

والقديس غريغوريوس النصيصى يقول: «إن قوة الكلمة عينها تجعل الكاهن وقورًا ومُكرمًا بالبركة الجديدة، إذ ينفصل عن الجماعة الكثيرة (الشعب). لأنه أمس وقبل كان واحدًا من كثيرين ومن الشعب فصار حالاً دفعة واحدة متقدمًا ورئيسًا ومعلمًا للإيمان وكاتمًا للأسرار الخفية. وهذا كله يصنعه من دون أن يتغير شيء في جسده أو هيئته، بل وهو لم يزل في الظاهر كما كان تتغير نفسه غير المنظورة في ما هو أفضل بقوةٍ ونعمةٍ غير منظورتين» (على معمودية المسيح ١٠).

والقديس أمبروسيوس يقول: «مَنْ يمنح نعمة الأسقفية، الله أم الإنسان؟ إنكم بلا شك تجيبونني إنه الله، لكن الله يمنح النعمة بخدمة بشرية. فالإنسان

يضع الأيدي والله يسكب النعمة، الكاهن يضع يده الدنيئة والله يُبارك بيمينه القادرة على كل شيء. فالأسقف يُشرطِن الخادم للخدمة وأما الله فإنه يمنحه الكفاية» (في الرتبة الكهنوتية فصل ٥).

الباب السادس

مَن له أن يُتمم سر الكهنوت وشروط إتمام شرطونية الدرجات الكهنوتية، والشروط الواجب توافرها في المشرطَنين

١- مَن له حق تتميم السر والشروط الواجب توافرها فية لإتمام شرطونية الدرجات الكهنوتية

تُعلّم الكنيسة الأرثوذكسية أن حق الشرطونية هو خاص بخلفاء الرسل أي الأساقفة، وهذا التعليم تؤَيِّده،

أولاً: الكتب المقدسة. يتضح من الإنجيل المقدس أن الرسل وحدهم كانوا يشرطنون بأيديهم رجال الكهنوت في الدرجات المتنوعة، فقد شرطنوا أساقفة. فبولس الرسول شرطن تلميذه تيموثاوس أسقفًا على أفسس، حيث كتب له قائلاً: "فَلِهذَا السَّبَبِ أُذَكِّرُكَ أَنْ تُضْرِمَ أَيْضًا مَوْهِبَةَ اللهِ الَّتِي فِيكَ بِوَضْعِ يَدَيَّ" (٢تي ١:٦).

وأعطوا هذا السلطان للأساقفة وحدهم، حيث كتب بولس الرسول إلى تيموثاوس قائلاً له: "لاَ تُهْمِلِ الْمَوْهِبَةَ الَّتِي فِيكَ، الْمُعْطَاةَ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ مَعَ وَضْعِ أَيْدِي الْمَشْيَخَةِ" (١تي ٤:١٤)، كما كتب له قائلاً: "لاَ تَضَعْ يَدًا عَلَى أَحَدٍ بِالْعَجَلَةِ، وَلاَ تَشْتَرِكْ فِي خَطَايَا الآخَرِينَ" (١تي ٥:٢٢). وكتب أيضًا إلى تلميذه تيطس أسقف كريت قائلاً: "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥). ولم يذكر الإنجيل المقدس أن سر الكهنوت أُقيم من إكليروسيين غير الأساقفة وحدهم، بل حيث ورد فيه ذكر الشرطونية يُقال أنها أقيمت من الأساقفة وحدهم.

أما قول بولس الرسول إلى تيموثاوس: "لاَ تُهْمِلِ الْمَوْهِبَةَ الَّتِي فِيكَ، الْمُعْطَاةَ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ مَعَ وَضْعِ أَيْدِي الْمَشْيَخَةِ (τοῦ πρεσβυτερίου)" (١تي ٤:١٤)، فقد شرحه القديس يوحنا الذهبي الفم بقوله: «إن كلمة " τὸ

πρεσβυτέ ριον" تدل على جمعية رعاة الكنيسة الذين كان أحدهم بولس الرسول لا على القسوس فقط، أي الكهنة. فهو لم يقل عن القسوس بل عن الأساقفة، لأن القسوس لم يكونوا يشرطنون الأسقف» (مقالة ١٣:١على ١تي). هذا الشرح للقديس يوحنا الذهبي، لقول بولس الرسول إلى تيموثاوس (١تي ٤:١٤)، ينطبق أيضًا على قول بولس الرسول إلى لتيطس: "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا (πρεσβυτέρους = كاهنة أو قسوس) كَمَا أَوْصَيْتُكَ" (تي ١:٥).

وهذا التفسير هو الحق كله؛ لأن بولس نفسه يشهد أنه هو شرطن تيموثاوس بيديه حيث يقول له: "فَلِهذَا السَّبَبِ أُذَكِّرُكَ أَنْ تُضْرِمَ أَيْضًا مَوْهِبَةَ اللهِ الَّتِي فِيكَ بِوَضْعِ يَدَيَّ" (٢تي ١:٦).

ثانيًا: القوانين الرسولية والمجمعية. إن القانونين الرسولين الأولين يأمران أن يُشرطن الأسقف من أسقفين أو ثلاثة، وأن يُشرطن الكاهن والشماس وسائر الإكلورسيين من أسقف.

والقانون ١٩ للمجمع المسكوني الأول يقول من جملة ما قاله: «أنه إن كان بعضٌ (من الخارجين عن الإيمان المستقيم) قد فُحصوا في الماضي للكهنوت فإن كانوا بلا عيب ولا نقص فليُعَد تعميدهم وليُشرطنوا من أسقف الكنيسة الجامعة، ولكن إن وُجدوا بعض الفحص غير موافقين فيجب أن يُبعدوا».

والقانون ٩ للمجمع الأنطاكي يقول: «كل أسقف له سلطان على أبرشيته أن يسوسها بحسب ما يفرض التقوى على كل واحد، وأن يعتني في كل المقاطعة التي تحت إدارة مدينته، وأن يُشرطن قسوسًا وشمامسة ويبحث في كل شيء بحكم».

هذا التعليم نفسه يوجد في الأوامر الرسولية ومؤلفات الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة،

ففي الأوامر الرسولية ورد: «نأمر أن يُشرطَن الأسقف من ثلاثة أساقفة أو على الأقل من إثنين... وأما الكاهن والشماس فمن واحد وكذلك سائر الإكليروسيين. ولكن لا يجسرون كاهن أو شماس على شرطونية العوام»

(كتاب ٣:٢٠). وفي محل آخر ورد: «لا يجوز للكاهن أن يُشرطِن إكليروسيين» (كتاب ٨ فصل ٤٦). وأيضًا: «إن القس يضع يده ولكن لا يُشرطِن» (فصل ٢٨).

والقديس يوحنا الذهبي الفم قال: «إن الأساقفة يَسْمُون عن القسوس بالشرطونية فقط، وبها وحدها يظهر أنهم يمتازون عنهم» (مقالة ١:١٠ على ٢تي).

والقديس أبيفانيوس قال: «إن درجة الأساقفة تمتاز بنوع خصوصي بأنهم يلدون آباء، لأن تكثير الآباء في كنيسة المسيح يختص بالأساقفة. وأما الرتبة الثانية (الكهنة) فلا يمكنها أن تلد آباء ومعلمين. فكيف يمكن أن يُشرطن كاهن كاهنًا آخر وليس له سلطان الشرطونية؟» (هرطقة ٧٥).

والقديس إيرونيموس قال: «ماذا يعمل الأسقف ولا يعمله القس عدا الشرطونية؟» (رسالة ٨٥).

ومن التاريخ، إن القديس أثناسيوس شَرَع يبرهن أن خصمه لم يكن له حق بأن يشتكي عليه لأنه كان كاهنًا لا أسقفًا. (إحتجاجه ضد الأريوسيين عدد ١٢).

٢- الشروط الواجب توافرها في المزمعين أن يُشرطَنوا

إن الشروط التي يجب توافرها في المزمعين أن ينالوا سر الكهنوت هي،

أولاً: من جهة الإيمان.

١- أن يكونوا أرثوذكسيين لأنهم مقامون ليكونوا رعاة في الكنيسة الأرثوذكسية. ولذا قد حدد المجمع المسكوني الأول في القانون التاسع عشر أن يُعاد أولاً بلا بد تعميد الذين التجأوا إلى الكنيسة الجامعة، وبعد إعادة تعميدهم أن يُنظر في أمر الذين كانوا منهم قبلاً إكليروسيين فإن وُجدوا بلا لاوم ولا نقص يُشرطنون. وفي مجمع قرطاجنة حُدد في المتقدمين إلى سر الكهنوت أن لا يكونوا هم وحدهم أرثوذكسيين بل أن يَرجعوا جميع أبناء بيتهم إلى الديانة القويمة قبل أن ينالوا الشرطونية.

٢- لا يجب أن يُشرطن رجال حديثون في الإيمان كهنة، كما يقول بولس الرسول: "غَيْرَ حَدِيثِ الإِيمَانِ لِئَلاَّ يَتَصَلَّفَ فَيَسْقُطَ فِي دَيْنُونَةِ إِبْلِيسَ" (١تي ٣:٦). كما لا يجب أن يُرقى مثل هؤلاء إلى وظيفة رئاسة الكهنوت السامية

قبل أن يُفحصوا أولاً بالتدقيق في درجات الكهنوت الأوطى، كما يحدد القانون ١٧ للمجمع المسكوني الخامس والقانون ١٠ لمجمع ساردیكية.

ثانيًا: من جهة السلوك.

١- أن يكونوا بلا لوم في السلوك كوكلاء لله، كما يقول بولس الرسول: " وَيَجِبُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ، لِئَلاَّ يَسْقُطَ فِي تَعْيِيرٍ وَفَخِّ إِبْلِيسَ" (١تي ٣:٧)، وكما حدد القانون ١٢ لمجمع اللاذقية.

٢- أن يكونوا مثالاً للمؤمنين في الكلام والتصرف والمحبة والروح والإيمان والنقاوة (كما يقول بولس الرسول في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٤:١٢).

٣- أن يعرفوا الكتب المقدسة والقوانين الكنائسية ويسلكوا بحسب الأوامر الإلهية ويعلموا الشعب المؤتمنين عليه السلوك بها (كما حدد القانون ٢ للمجمع المسكوني السابع).

والقانون ٨٠ للرسل يذكر: «(وكل رجل) اعتنق الإيمان وكان أمميًا وذا تصرف رديء لا يحق له أن يُنتدب أسقفًا قبل أن يُظهر إختباره حالته». ويذكر نفس القول القانون ٢و٩ للمجمع المسكوني الأول.

ثالثًا: من جهة الزيجة.

١- إن شرط أن يكون المزمعون أن يُرقوا إلى درجة الأسقفية أحرارًا من رباط الزيجة ليس ضروريًا للذين يُنتخبون للكهنوت والشموسية. أما القانون الذي يطلب حرية الأساقفة من الزيجة فمبدأه من التسليم الرسولي، وكما يشترط القانون ٣ و٤ لمجمع قرطاجنة والقانون ٣٠ للمجمع المسكوني السادس. على أنه لا ريب في أن رجالاً شُرطونوا أساقفة في أزمنة المسيحية الأولى وكانوا متزوجين، كما يتوضح من قول بولس الرسول لتيموثاوس: "فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الأُسْقُفُ... يُدَبِّرُ بَيْتَهُ حَسَنًا، لَهُ أَوْلاَدٌ فِي الْخُضُوعِ بِكُلِّ وَقَارٍ" (١تي ٤:٣:٢)،

٢- اشترطت الكنيسة ألا يكون المتقدم للشموسية أو للكهنوت قد يتزوج زيجة ثانية، وفقًا لكلام كما يقول بولس الرسول: "لِيَكُنِ الشَّمَامِسَةُ كُلُّ بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ" (١تي ٢:١٢)، "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ (تيطس) فِي كِرِيتَ لِكَيْ

تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ بِلاَ لَوْمٍ، بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ" (تي ١:٥و٦).

والآباء القديسون أيضًا استنادًا على أقوال بولس الرسول السابق ذكرها يرفضون من هو في زيجة ثانية للرسامة الكهنوتية. من هؤلاء الآباء أمثال القديس ترتليانوس (في تحريضه على النقاوة فصل ٧)، والقديس يوحنا الذهبي الفم (مقالة ٢ على تيطس)، والقديس أبيفانيوس (في شرح الإيمان العام فصل ٢١).

في القوانين الرسولية كان مسموحًا للأساقفة ولسائر رجال الكنيسة أن يبتعدوا عن زوجاتهم، كما الرسولي الإلهي بطرس، تحت شرط العفاف فقط لا لأنهم يحتقرون الزواج (القانون ٥١ للمجمع المسكوني السادس)، الذي كان يحتقره بعض من أصحاب البدع والتعاليم الشيطانية، كما يصفهم بولس الرسول بقوله: "وَلكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا، إِنَّهُ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الإِيمَانِ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينَ، فِي رِيَاءِ أَقْوَالٍ كَاذِبَةٍ، مَوْسُومَةً ضَمَائِرُهُمْ، مَانِعِينَ عَنِ الزِّوَاجِ" (١تي ٤:١-٣). وإن كان المتخبون للإسقفية من الكهنة المتزوجين فكانوا على الغالب مكلفين أن يتركوا زوجاتهم بعد ترقيتهم إلى درجة الأسقفية، على أن هذه العادة حتى القرن الرابع والخامس ما كانت شريعة واجبة الإجراء (القوانين ٤و٣٤و٨١ لمجمع قرطاجنة).

في القرن السادس عندما ثبت الملك يوستنيانوس قوانين الخدم الكنائسية جعل تلك "العادة القديمة عادة الآباء القديسين" مرعية، وبموجبها كان يُشرطنون أساقفة من المتوحدين وغير المتزوجين، أو الإكليروس العقيمون ليتمكنوا بسهولة من ترك زوجاتهم بعد الشرطونية (نيارا يوستنيانوس ٦:١).

وفي القرن السابع إذ لم تُحفظ هذه العادة القديمة، ترك الأساقفة لزوجاتهم، حدد المجمع المسكوني السادس في القانون الثاني عشر: «لقد صار معرفًا عندنا أن رؤساء الأبرشيات الموقرين في أفريقيا وليبيا وأماكن أخرى لا يتركون مساكنة زوجاتهم بعد شرطونيتهم فيصيرون عثرة وشكًا للآخرين. فبما أننا نهتم كثيرًا في أن يكون كل شيء من الرعاة لصالح الرعية رأينا أن لا يجري فيما بعد هذا الأمر. ولا نقول ذلك غاية ابطال

الشرائع الرسولية وإلغائها، بل لنحصل على خلاص الشعوب ونجاحهم فيما هو أفضل ولا ندع لومًا ما على حالة الكهنوت، فإن الرسول الإلهي يقول: "فافعلوا كل شيء لمجد الله. كونوا بلا عثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله. كما أنا أيضا أرضي الجميع في كل شيء، غير طالب ما يوافق نفسي، بل الكثيرين، لكي يخلصوا. كونوا متمثلين بي كما أنا أيضا بالمسيح" (١كو ١٠:٣١-٣٣ و١١:١). فإن ظهر أحد بعد الآن يُخالف ما ذُكر فليقطع». ومن ذلك العصر إلى الآن صارت هذه المادة شريعة لا تخالف في الكنيسة الأرثوذكسية بأن يُنتخب للدرجة الأسقفية إكلورسيون غير متزوجين.

أما الكهنة والشمامسة فلم تمنعهم الكنيسة أن يكونوا من صف المتزوجين وفقًا لكلام الله على فم بولس الرسول: "لِيَكُنِ الشَّمَامِسَةُ كُلٌّ بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مُدَبِّرِينَ أَوْلاَدَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ حَسَنًا" (١تي ٣:١٢)، "مِنْ أَجْلِ هذَا تَرَكْتُكَ (تيطس) فِي كِرِيتَ لِكَيْ تُكَمِّلَ تَرْتِيبَ الأُمُورِ النَّاقِصَةِ، وَتُقِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ شُيُوخًا كَمَا أَوْصَيْتُكَ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ بِلاَ لَوْمٍ، بَعْلَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ" (تي ١:٥و٦).

وعندما طلب البعض في المجمع المسكوني الأول إدخال شريعة جديدة في عدم زواج جميع خدام الكنيسة على الاطلاق، قام القديس بافنوتيوس (Παφνουτιος) المعترف، وهو بتول وصارم وواحد من أجَل آباء المجمع، مُتصدِّيًا للمجمع في أمر بتولية الكهنة ومنعَ سائر الآباء في المجمع عن أن يضعوا على عاتق خدام الكنيسة حِملاً ثقيلاً كهذا لا يمكنهم أن يقوموا به بسهولة، ثم قال: «إنه يكفي أن نقرر تسليم الكنيسة القديم» (تاريخ سقراط ١:٢ و١:١١، سوزومين ١:٢٣)، غير أن الكنيسة تطلب أن يكون زواجهم قبل شرطونيتهم (قانون ٢٦ للرسل، قانون ١ لمجمع قيصرية الجديدة، قانون ٣ و٦ للمجمع المسكوني الأول)، ولم تطلب منهم مطلقًا أن ينذروا البتولية كأنها واجب مقدس تقتضيه خدمتهم، بل بالعكس فإنها استنادًا على التسليم الرسولي منعتهم من ترك نسائهم ولم تسمح به لعلة الورع والتعفف (القانون ٤ للمجمع المسكوني الأول). وقد أفرزت العامة الذين لم يريدوا أن يتناولوا الأسرار المقدسة من أيدي الكهنة المتزوجين (القانون ١٢ للمجمع المسكوني السادس).

وقد حافظت كنيسة روما نفسها على هذا التسليم العام في الكنيسة الجامعة حتى آخر القرن الرابع، غير أنها في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس (البابا سيريكوس- عام ٣٨٥- القانون ٢، إينوشنسيموس الأول- عام ٤٠٤- القانون ٢) وعلى الخصوص في أواسط القرن الخامس (البابا لاون الأول- عام ٤٤٣- القانون ٣، مجمع أوريلياني الثاني- عام ٤٥٢- القانون ٧) وفي القرن السادس (مجمع طليطلة- عام ٥٣١- القانون ١، ومجمع تور- عام ٥٦٧- القانون ١٩) أُصدرت أوامر تُحتم بالبتولية التامة وترك الزوجات، لا على الكهنة والشمامسة فقط بل على الإيبوذياكون أيضًا. فكانت هذه الأوامر مخالفة لروح الشرائع الكنائسية القديمة وسببًا يجعل بصرامته جميع الإكلورسيين الضعفاء يعيشون عيشة ذات شكوك.

لذا حدد المجمع المسكوني السادس- عام ٦٨١- القانون ١٣ الذي ورد فيه: «بما أننا عرفنا إنه قد سُلِّم في كنيسة الرومانيين وجُعل في رتبة قانون اعتراف المزمعين أن يُؤَهَّلوا للشرطونية في رتبة الشموسية أو القسوسية بأنهم لا يقربون فيما بعد من زوجاتهم. فنحن تبعًا للقانون القديم المُسلَّم من التدقيق والترتيب الرسولي نريد أن نثبت من الآن الزيجات الناموسية للرجال المتكهنين ولا نحل رباطهم مع زوجاتهم، ولا نمنعهم عن الاقتراب منهن في الأوقات اللائقة (حيث يمنعوا من الاقتراب من زوجاتهم في الليلة السابقة لوقت خدمتهم). فإن وُجد رجل مستحقًا لأن يُشرطَن إيبوذياكونًا أو شماسًا أو قسًا لا يُمنع البته عن نواله هذه الدرجة لمُساكانته زوجة شرعية، ولا نطلب منه حين الشرطونية أن يبتعد عن الاقتران الناموسي بزوجته لكي لا نهين الزيجة المشترعة والمباركة من الله بحضوره، وصوت الإنجيل يصرخ قائلاً: "فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" والرسول يُعلم قائلاً: "الزواج مكرما عند كل واحد، والمضجع غير نجس" وأيضًا: "أنت مرتبط بامرأة، فلا تطلب الانفصال".

وقد علمنا أن الذين اجتمعوا في قرطاجنة واعتنوا بحرمة الخَدم في سيرتهم قالوا: "إن الإيبوذياكونين الذين يلمسون الأسرار المقدسة والشمامسة والقسوس يتعففون في أوقاتهم (أي الليلة السابقة لوقت خدمتهم) عن زوجاتهم لكي نحفظ نحن أيضًا ما سُلِّم من الرسل ويجري منذ القديم، جاعلين لكل شيء وقتًا خصوصيًا للصوم والصلاة". فإنه يجب على الذين

يدنون من المذبح أن يكونوا حين استعمال القدسات عُفَفَاء في كل شيء ليستطيعوا أن يحصلوا على ما يطلبونه من الله ببساطة. فإن تجاسر أحد أن يخالف القوانين الرسولية ويحرك بعضًا من ذوي الكهنوت، نعني الكهنة والشمامسة والإيبوذياكونيين، ويمنعهم عن الاقتران والاتحاد بزوجاتهم الشرعيات فليُقطع. وأيضًا كل كاهن أو شماس يترك زوجته متعللاً بالتقوى فليُفرَز، وإن أصر على ذلك فليُقطَع».

غير أن باباوات روميا بعد ذلك لم يأخذوا في الاعتبار هذا القانون المسكوني بل تجاسروا على مخالفته وسنوا عكسه وتشبثوا في القرون المتأخرة بأن يؤيدوا أوامرهم بمنع الزيجة عن الإكليروس (مجمع روميا- عام ٧٤٣- قانون ١و٢). وفي القرن الثاني عشر عمموا تلك الأوامر على درجات الخِدَم الأوطى أيضًا (المجمع اللاتراني الأول- عام ١١٢٣- القانون ٤٠).

الـخاتـمة

نتائج سر الكهنوت المقدس

إن الذين يُنتدبون إلى الكهنوت يُشرطنون بسر الكهنوت في الكنيسة لرتبة خصوصية ويأخذون نعمة من فوق ليكونوا معلمي الإيمان وخادمي الأسرار المقدسة ورعاة قطيع المسيح. فهذه الدعوة هي دعوة سامية ومسؤولية عظيمة أيضًا على الذين يتقلدوا وظيفة هذه الخدمة الشريفة. ويجب على الرعاة بكل احترام أن يتذكروا على الدوام أقوال الرب: "أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ" (مت ٥:١٣)، ووصية بولس رسول الأمم لتيموثاوس القائلة: "كُنْ قُدْوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْكَلاَمِ، فِي التَّصَرُّفِ، فِي الْمَحَبَّةِ، فِي الرُّوحِ، فِي الإِيمَانِ، فِي الطَّهَارَةِ" (١تي ٤:١٢). كما ينبغي عليهم الانتباه لوصية بولس رسول إلى قسوس كنيسة أفسس، بقوله لهم: "اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠:٢٨). وأيضًا بكل غيرة ينبغي أن يُتمموا العمل العظيم الذي به يتعلق خلاصهم وخلاص المؤمنين الذين أُئتمنوا على تدبيرهم وقيادتهم روحيًا.

خـاتـمة
في الأسرار المقدسة عامة

١ـ نتائج القسم المنظور والقسم غير المنظور للأسرار المقدسة

أولاً: نحو الله. يُستفاد بالنسبة إلى الله الإيمان والرجاء والمحبة.

فبالإيمان يتعلم المؤمنين أن الإيمان هو الشرط الأول الذي لا بد منه للإنسان للاشتراك بكل واحد من الأسرار.

وبالرجاء بوعد الرب في كل واحد من الأسرار بموهبة خصوصية، يؤهل المؤمنون أن ينظروا عهوده متمَّمة بالفعل.

وبالمحبة يُرى أن الرب يمنح مجانًا المؤمنين به بالأسرار إحسانات لا تُحصى، والذي يُحركه إلى إفاضتها عليهم هو صلاحه الذي لا يُحد وحده.

ثانيًا: نحو القريب. يُستفاد بالنسبة إلى القريب تعاليم المحبة والاتفاق الأخوي؛ لأن جميع المؤمنين أعتمدوا بروح واحد لجسد واحد يهودًا كانوا (أي مؤمنون) أم يونانيين (أي غير مؤمنين) عبيدًا أم أحرارًا، فجميعهم سُقوا روحًا واحدًا، كما يقول بولس الرسول: "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ، يَهُودًا كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ، عَبِيدًا أَمْ أَحْرَارًا، وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحًا وَاحِدًا" (١كو ١٢:١٣)، وكما يقول أيضًا: "فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١كو ١٠:١٧).

كما أن الجميع تطهروا من الخطايا بسر التوبة بالنعمة الواحدة، والمواهب تُمنح للجميع بكل الأسرار. لذا يجب أن يحفظوا وحدة الروح برباط السلام جسدًا وروحًا واحدًا، كما يقول بولس الرسول: "مُجْتَهِدِينَ أَنْ تَحْفَظُوا وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ بِرِبَاطِ السَّلاَمِ. جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ" (أف ٤:٣و٤). محتملين بعضهم بعضًا بطول أناة بمحبة، كما يقول أيضًا بولس الرسول: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ... أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا. بِكُلِّ تَوَاضُعٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَبِطُولِ أَنَاةٍ، مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْمَحَبَّةِ" (أف ٤:١و٢).

ثالثًا: إلى المسيحيين أنفسهم. يُستفيد بالنسبة إلى المسيحيين أنفسهم تعاليم الاتضاع والقداسة؛ لأن الأسرار تُذكرهم بسقوطهم وضعفهم الجسدي الذي فيهم وأنهم لا يستطيعون أن ينهضوا بقواهم الشخصية ويسيروا طريق الخلاص بلا معونة.

وتذكرهم أيضًا بإعادة ولادتهم وتبررهم وتقديسهم بالنعمة الإلهية وتحثهم على التواضع، إذ يشعروا بحالتهم التعيسة وبضعفهم الجسدي وتلزمهم أن يحفظوا القداسة التي منحها الرب لهم لينالوا مساعدة نعمته الإلهية التي يمنحها إياها لكي ينجحوا ويتقدموا في التقوى والفضيلة.

٢- إعتراضات بعض الخارجين على المتمِّمين للأسرار وعلى المتقدمين إليها

أولاً: إن بعض الخارجين عن الإيمان الأرثوذكسي قد ارتأوا آراء غير صحيحة، فقالوا إنه شرط ضروري لتتميم الأسرار وفاعليتها، فضلًا عن الشرطونية القانونية لخادم السر، أن يكون رجلاً ذا تقوى وفضيلة. وأنكروا على الأسرار المتممة من خدام خطأة أو غير أفاضل قوتها وفاعليتها.

هذا الرأي، كما سبق القول، غير صحيح وليس له أساس. والكنيسة الأرثوذكسية ترفض هذا الرأي لأنها تؤمن بأن قوة السر بحسب النعمة التي تمنحها ليست متعلقة باستحقاق خادم السر، بل هي متعلقة على الخصوص باستحقاق وإرادة ربنا يسوع المسيح الذي هو نفسه يتتم السر بوجه غير منظور؛ أما رعاة الكنيسة فهم آلات منظورة بها يوزع المخلص النعمة للمتقدمين إلى الأسرار. وقد كان القديس يوحنا المعمدان يقول عن يسوع المسيح: "هذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (يو ١:٣٣)، على أن "يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلاَمِيذُهُ" (يو ٤:٢)، وبولس الرسول يقول: "لَيْسَ الْغَارِسُ شَيْئًا وَلاَ السَّاقِي، بَلِ اللهُ الَّذِي يُنْمِي" (١كو ٣:٧). لكن في الوقت عينه تَعلم الكنيسة الأرثوذكسية حق العلم الدرجة الكبيرة التي تعتمد فيها الحياة الكنسية على استحقاق أو عدم استحقاق من أُوكِلوا وأُوْدِعوا "تدبير الأسرار الإلهية".

أقول: {{هذه الإشكالية أُثيرت في القرون الأولى من الهراطقة المونتانيين (نسبة إلى مونتانيوس مؤسس الهرطقة المونتانية) الذين كانوا

يَدْعُون في تشددهم إلى الطهارة الكاملة. وقد أدانتهم وأفكارهم أولى المجامع الكنائسية - بعد مجمع أورشليم الرسولي - في القرنين الثاني والثالث بآسيا الصغرى. وقد فسر هذه الهرطقة (الهرطقة المونتانية) المؤلفون الكنسيون، مثل أوسابيوس بامفيلوس والقديس يرونيموس، كـ"تأثير الأرواح الشريرة"{}.

كما أن الآباء والمعلمون الأقدمون القديسون ينبذون باتفاق هذا الرأي للهراطقة الخارجين عن الإيمان الأرثوذكسي، ويقولون أن قوة الأسرار لا تتعلق قطعيًا بآداب الخادم واستحقاقه أو عدم استحقاقه؛ لأن المسيح نفسه بقوة الروح القدس يُتمم المعمودية للبشر وهو غير منظور.

كما يقول القديس كيرلس الأورشليمي: «لأن النعمة ليست من بشر لكن من الله بواسطة البشر. فأنت ادنُ من المعمودية وعندما تدنو لا تنظر إلى الشخص الذي تراه بل اذكر الروح القدس الذي كلامنا الآن عنه لأنه حاضر ومستعد لأن يختم الآن نفسك ويمنحك ختمًا» (عظة ١٧:٣٥).

وكما يقول القديس أثناسيوس الكبير: «إن الكاهن لا يُقدس الماء بل يُتمم الخدمة الواجبة وقد أخذ نعمة من الله» (في الثالوث الأقدس فصل ٤٠). وأيضًا كما يقول أن الله هو الذي يحل الخطايا، بقوله: «إن عُمدنا وإن تُبنا وإن صفحنا فإن المسيح هو علة هذا كله وفاعله» (رسالة ٢:٧).

وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم أن الله هو الذي يُشرطن ويمنح درجات الكهنوت المتنوعة، بقوله: «إن اليد تُوضع على الرجل والله يعمل كل الأمر ويده هي التي تلمس رأس المُشرطن إن كان يُشرطن كما يجب» (على الأعمال مقالة ١٤:٣).

وكذلك يقول القديس يوحنا الذهبي الفم أن الله هو الذي يُبارك القرابين الإلهية على المذبح المقدس، بقوله: «فآمنوا إذن أن هذا العشاء هو العشاء الذي اتكأ فيه هو لأنه لا فرق بين هذا وذاك، وليس الإنسان يصنع هذا وهو صنع ذاك بل هو الصانع هذا وذاك. فعندما ترى الكاهن يُناولك لا تظن أن الكاهن يفعل هذا الفعل بل اعرف أن اليد الممدودة هي يد المسيح. وكما أن الكاهن عندما يُعمدك ليس هو الذي يُعمدك بل الله الضابط رأسك بقوة غير منظورة ولا يتجاسر ملاك أو رئيس ملائكة أو أحد غيرهما أن يدنو منك

ويلمسك هكذا الآن أيضًا، لأنه عندما يخلق الله تكون الموهبة منه وحده» (مقالة ٣:٥٠ على متى).

وأيضًا يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «لأنه قد يتفق أن يكون الرؤساء أشرارًا ومدنسين والمرؤوسين ودعاء ولطفاء، وأن يكون العلمانييون عائشين بالتقوى والكهنة بالخبث. فلو كانت النعمة في كل واحد متوقفة على الاستحقاق لما كانت بمعمودية بؤلئك معمودية ولا جسد المسيح ولا قربان، وأما الله فإنه اعتاد أن يفعل بواسطة غير المستحقين أيضًا دون أن تضر سيرة الكاهن شيئًا بنعمة الأسرار الإلهية، وإلا فيكون الذي يأخذ السر هو الخاسر. نعم هذا الأمر نادر، ولكنه مع ذلك يجري. هذا أقوله لكي لا يرتاب أحد من الحاضرين في الطقوس المتَّممة إذا بحث في سيرة الكاهن، لأن الإنسان لا يضيف شيئًا إلى ما هو موضوع (لإقامة السر)، بل كل شيء هو عمل قوة الله وهو الذي يمنحكم نعمة السر» (مقالة ١:٨ على ١كو).

وكما يقول القديس غريغوريوس الثاولوغس: «كل واحد (من الأساقفة والكهنة) هو مستحق أن تصدقوا أنه يُطهركم، ويكفيه لذلك أن يكون واحدًا من الذين أخذوا السلطان ليغفروا الخطايا ولم يصيروا مرفوضين علانية (من الكنيسة). فأنتم الذين تطلبون الشفاء لا تدينوا قضاتكم ولا تبحثوا عن أهلية الذين يُطهرونكم ولا تجروا انتخابًا على والديكم، لأنه أمر قلما يعنيكم إن كان هذا أفضل وذاك أدنى وكل واحد من هؤلاء هو أفضل منكم. فانظروا أنتم كيف يجب أن تفكروا: "عندي خاتمان أحدهما ذهب والآخر من حديد وكلاهما عليهما الصورة نفسها، فاطبع بكليهما طبعة على شمع، فبماذا تمتاز طبعة الواحد عن طبعة الآخر؟ إنها لا تمتاز بشيء. فإن كانت أنت ممتاز بحذاقة عقلك، فكما في طبع المعدن على الشمع، قل لي: أية صورة من هاتين الصورتين هي صورة الخاتم الذهبي، وأية هي صورة الحديد؟ ولماذا الصورتان كلتاهما متشابهتان؟ لأنه وإن كانت المعادن المختلفة ليست مبينة في الصورة الأصلية، فقابلوا على ذلك كل واحد من (الأساقفة أو الكهنة) الذين يعمدونكم. فالواحد يمكن أن يسموا الآخر بالسيرة الروحانية، غير أن قوة المعمودية واحدة". والقادر أن يُعلمكم الإيمان الواحد نفسه يقدر أن يرشدكم إلى الكمال» (خطاب في المعمودية).

وكما يقول القديس إيسيذوروس البيلوسي: «إن من ينال الأسرار المقدسة لا يخسر شيئًا وإن كان خادمها غير مستحق. وأيضًا لا ينالها عبثًا وإن كان القس الذي يخدمها مريدًا أن يسحب معه كل العالم إلى الدينونة» (رسالة ٣٤٠).

وكما يقول المغبوط أوغسطينوس: «إن السر أيضًا يتعلق بالله وما الإنسان إلا خادم بسيط. فإن كان الإنسان صالحًا فيكون موافقًا لله ويفعل بالله، وإن كان شريرًا فالله يمنح أيضًا به نعمته غير المنظورة كما بآلة. ولا تظنوا أن الأسرار تتعلق بأدب البشر وأعمالهم، فإنها مقدسة ونابعة من الله القدوس» (فصل ٣٧:٨٨).

وكما يقول القديس ثيوفيلاكتوس أسقف بلغاريا: «إن النعمة تفعل بواسطة غير المستحقين كما أننا نتقدَّس بواسطة الكهنة غير المستحقين» (على متى ٧).

وهذه الآراء الصائبة يُشبهها الآباء القديسيون بالنهر الجاري الذي يمكن أن يُنقل بواسطة أنبوب أو قناة يابسة وعادمة الماء ولا تُمس طهارته، وبالبذار الجيد الذي يُثمر سواء رُمي في الأرض من أيدي طاهرة أو غير طاهرة، وبأشعة الشمس التي لا تتدنس إذا مرَّت على أشياء دنسة. (أوغسطينس على يوحنا ٥:١٥ وضد كريسكس ٣:٨ وفي المعمودية ٣:١٠و١٣).

ثانيًا: بعض آخر من الخارجين عن الإيمان الأرثوذكسي قد ارتأوا آراء أخرى غير صحيحة أيضًا، فقالوا إنه يُشترط أيضًا لحقيقة الأسرار وقوتها وفاعليتها إيمان ونوايا المتقدمين إليها، وأن هذا الإيمان هو الذي يجعل السر حقيقيًا وذا فعل. هذا الرأي، كما سبق القول، غير صحيح وليس له أساس كالرأي الأول. فإن الرب يسوع المسيح قد رأى حسنًا أن يرتب الأسرار، كما سبق وذُكر، أي أن يجعل كل موهبة من مواهب الروح القدس مرتبطة ارتباطًا جوهريًا بعلامة معينة منظورة حتى أن كل سر متى أُقيم بحسب ترتيبه يفعل ضرورة في البشر فعله بالنعمة.

ومن ثم زعموا أن الأسرار ليست سرًا وليست لها قوة البتة في غير البرهة التي فيها يشترك بها المتقدمين إليها، ومتى مضت تلك البرهة أو اشترك فيها المتقدم للأسرار وهو ليس على يقين وإيمان بها لا تكون

الأسرار سرًا بل عملًا بطالًا بلا ثمر وبلا فعل، كما تقول بعض الشيع البروتوستانتية. هذا الرأي أيضًا، كما سبق القول، غير صحيح؛ لأن القدسات التي قد بوركت في سر الشكر تلبث بعد البركة جسد الرب نفسه ودمه نفسه وهي بعد على المذبح سواء كان قبل توزيعها للمؤمنين أو بعده، وسواء توزعت أو لم توزع عليهم. كما أن الكنيسة المقدسة منذ القديم تمنح أسرار المعمودية والميرون والشركة للأطفال أيضًا موقنة كل اليقين بأن هذه الأسرار تفعل فعلًا خلاصيًا فيهم، وإن كانوا غير قادرين أن يعترفوا بالإيمان بالمسيح.

أقول: {{هذا الرأي (المذكور في ثانيًا) هو بدعة؛ لأن الأسرارالإلهية لا ترتبط بأي "سببية" أرضية أو بشرية، وهذا من ثوابت وجدان الكنيسة الأرثوذكسية، وهي لا تتوقف على استحقاق أوعدم استحقاق الإنسان المتقدِّم إليها؛ لأنها عطية الله المجانية. لأنه كما لا يخضع الرب يسوع المسيح لإيمان الإنسان وإيمانه في أن يكون رب حق وإله حق إن قُبل من الإنسان على أنه ربٌّ وإلهٌ، أو أن لا يكون رب حق وإله حق إن رُفض منه على أنه ربٌّ وإلهٌ؛ لأن الإنسان المخلوق لا يُسَيِّر الخالق، أي أن يجعل الله مُسَيَّرًا لرغباته وميوله وأهوائه المتغيرة. كذلك الخلاص المُقدَّم من يسوع المسيح لجميع البشر لا يخضع لإرادة الإنسان وإيمانه بأن يُبطَل؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذا الخلاص المجاني، فمَنْ يؤمن بيسوع المسيح ربًّا وإلهًا ينال الخلاص، ومَنْ لا يؤمن به ربًّا وإلهًا يُبطِّل الخلاص بالنسبة لنفسه ولا يناله. هكذا أيضًا الأسرار الإلهية لا تخضع لإرادة الإنسان وإيمانه؛ لأن العلامة المنظورة للأسرار (الخبز والنبيذ في الإفخارستيا، الماء في المعمودية، الميرون... الخ) المرتبطة بعمل الروح القدس فيها، المُعطى من الرب يسوع المسيح بحلوله على العلامات المنظورة للأسرار تتقدَّس وتُقدِّس كل مَن يتناولها باستحقاق وتفعل فيه النعمة الإلهية. على أنه مطلوب، ولا شك من المتقدمين إلى الأسرار، إيمان حي واستعداد لائق بها كما تأمر الكنيسة المقدسة. ولكن هذا الإيمان وهذا الاستعداد ليسا جميع الشروط التي بدونها لا تكون للسر قوة وفعل، بل هما فرضان واجب اتمامهما من المؤمنين، ولكي تكون نتائج النعمة الإلهية الممنوحة بالأسرار المقدسة خلاصًا لهم وتثمر أيضًا في نفوسهم حياة أبدية.

أما مَنْ يتناول الأسرار الإلهية بدون استحقاق ليس فقط يُبطل بالنسبة لنفسه عمل نعمة التقديس، إن كان من المسيحيين إكليروس وشعبًا، أو من غير المُعمَّدين، بل إنها تصبح دينونة له لإجرامه في التجرُّؤ على التناول منها؛ كما يقول بولس الرسول عن سر الشكر: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ... لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو١١:٢٧-٢٩). وهذا القول لبولس الرسول عن سر الشكر ينطبق بالتالي على جميع الأسرار الإلهية؛ لأن جميع الأسرار يكون فعلها بعمل الروح القدس الذي يحل عليها، والإيمان هو الشرط الأول الذي لا بد منه للإنسان كي يشترك بكل واحد من الأسرار المقدسة}}.

وكما يقول البطاركة الشرقيون (الروم الأرثوذكس): «إن سر الشركة لو كان كماله محصورًا بالبرهة التي يتناول فيها المسيحي بإيمان حي فقط، ولم يكن وقت الاشتراك به كاملًا أو كان كماله متعلقًا بإيمان المُشترِك، لما كان المشتركون به وهم على خلاف الاستحقاق يأكلون ويشربون دينونة لأنفسهم إذ لم يُميِّزوا جسد الرب كما قال الرسول ["لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو ١١:٢٩)]، لأنهم يكونون إذ ذاك اشتركوا بخبز بسيط وخمر بسيط ليس إلَّا» (رسالة في الإيمان الأرثوذكسي بند ١٥).

مطرانية طنطا وتوابعها
للروم الأرثوذكس